

دعوة الحق



مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

جهود الأشاعرة في تحسين العقيدة الإسلامية

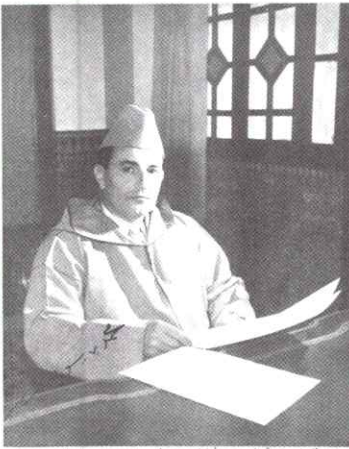
دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة السادسة والستون - العدد 442 - ذوالحجة 1444 هـ / يوليوز 2023 م



أسسها جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376 هـ / 1957 م

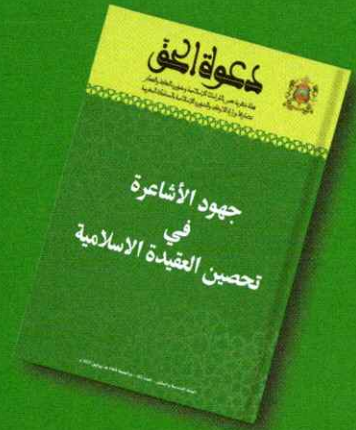


الملك محمد الخامس رحمه الله
أسسها جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376 هـ / 1957 م

”... ولعلنا نرسل أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار
مجلة جامعة تعنى بصفة خاصة بناحية الإصلاح
الدني، كما تعالج مختلف الشؤون الاجتماعية
والثقافية، ولنا وصيد الأمل في أن يلتفت حولها
لخدمة الفكر والثقافة والإصلاح في هذه البلاد
وغيرها لتؤخر مهمتها خير الحاء“
وعسى أن تسلك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاح والتوفيق“

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر
المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث
أو مكانة صاحبه.



مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

مدير المجلة

الأستاذ عبد العزيز أوعصري

رئيس التحرير

الأستاذ عبد الحميد العلمي

العنوان

مديرية الشؤون الإسلامية،
وزارة الأوقاف الإسلامية
المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني: www.daw'atalhaq.ma
البريد الإلكتروني: daawatalhak@mhai.gov.ma

هاتف التحرير

05 37 76 59 05

هاتف مدير المجلة

05 37 76 17 21 / فاكس: 05 37 66 06 74

التوزيع

هاتف وفاكس: 05 37 76 32 10

الحساب البنكي

القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط:

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة

الاشتراك التشجيعي: 500 درهم
المملكة المغربية: 150 درهم
الخارج: 300 درهم

ثمن العدد: 15 درهم

رقم الإيداع القانوني: 1981/3

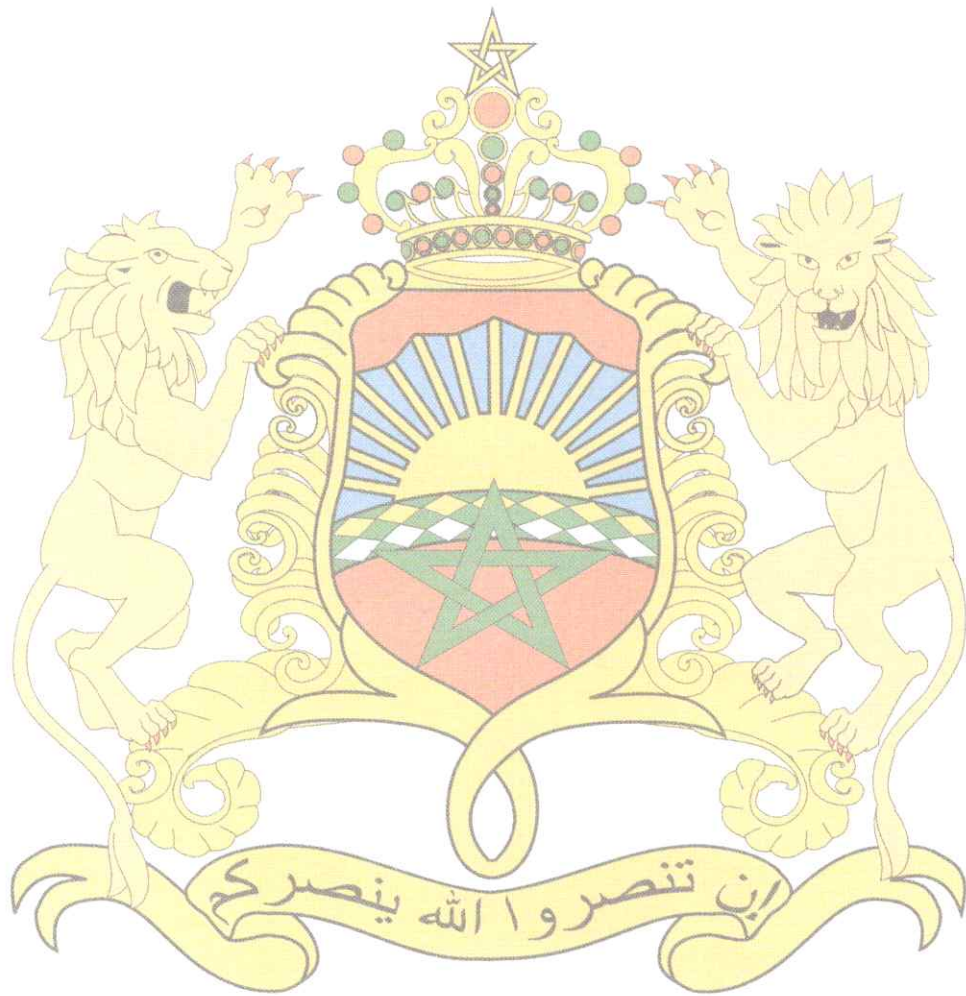
الرقم الدولي: 1981PE0003

الإخراج الفني والطباعة

مطبعة المعارف الجديدة/الرباط - 2023



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،
سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فلما كان الاشتغال بالعلوم الشرعية من أجل المهام شأنا وأرفعها قدرا، فقد هيا الله لها
علماء عملوا على تحرير فنونها وضبط رسومها، فازدانت مؤلفاتهم بالشروح الشافية والللصاف
الكافية، تبناها حذاق الشريعة الأخيار الذين عرفوا بالمعاني والأسرار، وأصبح على عاتق
الخلف الأبرار واجب التعريف بكليات الدين والذود عن عقيدة المسلمين.

وقد حاز خدام الشريعة منذ الصدر الأول شرف خدمة العقيدة الإسلامية، وتحسينها من شبه
المبطلين وتأويل الغالين. واقتدى بهديهم حذاق العلماء من سائر البلدان الإسلامية، ومختلف
المذاهب الفقهية السنية.

وهذا هو ديدن العلماء الأشاعرة، الذين نهلوا من معين الشريعة الغراء، مهتدين في ذلك
بصريقة الإمام أبي الحسن الأشعري (ت. 324هـ) في إثبات عقيدة السلف والذب عنها،
والانتصار للسنة والعمل بها. قال القاضي عياض (ت. 544هـ): «وصنف - أي الإمام أبو الحسن
الأشعري - لأهل السنة التصانيف، وأقام الحجج على إثبات السنة وما نفاها أهل البدع من
صفات الله تعالى ورؤيته، وقدم كلامه وقدرته... وصنف في ذلك التصانيف المبسوكة، التي
نفع الله بها الأمة»¹.

ووجه الدلالة بالنصر أعلاه، أن منهج الإمام أبي الحسن قائم على التمسك بالسنة وما كان
عليه سلف الأمة، من الصحابة والتابعين، ومن حذا حذوهم من الأعلام المهتدين.
قال الإمام تاج الدين السبكي (ت. 771هـ): «اعلم أن أبا الحسن لم يبذع رأيا، ولم ينشئ
مذهبا، وإنما هو مقرر لمذاهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله صلى الله

عليه وسلم. فالانتساب إليه، إنما هو باعتبار أنه عقد على لصيق السلف نكاحاً وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه»².

فقلوبه: «إنما هو مقرر لمذهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم»، مشعر بانتصاره لعقيدة السلف الصالحين، الذين منّ عليهم رب العالمين بخدمة هذا الدين، وتحصينه من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. وبه يعلم أن جهود الأشاعرة في تقرير عقيدة المسلمين، له استمداد مما نقل عن منهم الإمام أبي الحسن الأشعري، القاضي بالتزام ما نقل عن الصحابة الأكرمين، والخيار الماضين من الأئمة المقتدين. وهو بشهادة الموالف والمخالف من العلماء الراشخين، الذين ذاع صيتهم في العالمين، فكان بفضل ذوده عن الدين، وانتصاره لعقيدة المسلمين، النبراس المقتدى، والنموذج المحتذى. فاشترأت إليه الأعناق من كل الآفاق بفضل مصنفاته الدالة على قوة عارضته، وسلامة حجته، ورصانة منهجه في تحصين العقيدة الإسلامية، وترسيخ القيم الإنسانية. وقد كان لعلماء المذاهب الفقهية، الأيادي السابغات في خدمة العقيدة الأشعرية، وضبط علومها، وتفتيق رسومها، باعتبارها من الثوابت الدينية المشتركة، القائمة على التمسك بقيم الإسلام، الحارسة لكرامة الإنسان، الداعية إلى التعلق بثقافة السلام، الراضية لدعاوى التصرف والعدوان. وذلك لا يتحقق إلا باجتماع الأمة على وحدة العقيدة والإخلاص في العبادة، التي نص عليها القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾³.

وجريلاً على سنن مجلة دعوة الحق في التعريف بجهود علمائنا في تحصين عقيدة المسلمين، يسعد إدارة المجلة أن تخصص هذا العدد لموضوع: «جهود الأشاعرة في تحصين العقيدة الإسلامية»، وذلك بمشاركة ثلة من العلماء العاملين والأساتذة الباحثين، عسى أن يكون نافعاً في باب، وأن يجد محلاً عند قارئه، آمين، والحمد لله رب العالمين.

رئيس التحرير

د. عبد الحميد العلمي

2 - طبقات الشافعية، 3/ 365.

3 - سورة الأنبياء، الآية 91.



ملف العدد

عناية القاضي أبي بكر بن العربي بالتراث العقدي الأشعري

● ذ. عبد القادر بطار

أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة

يمثل القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الإشبيلي (ت543هـ) مرحلة مهمة في تاريخ العلوم الإسلامية بالغرب الإسلامي، فهو فقيه وأصولي ومتكلم ومحدث ومفسر وصوفي ولغوي، وقد تجلت هذه العلوم كلها في تراثه العلمي الذي وصلنا منه الشيء الكثير.

والذي يعنينا في هذه الدراسة هو شخصية القاضي أبي بكر بن العربي المتكلم الأشعري، وجهوده في حفظ التراث العقدي الأشعري السني، ونقله من المشرق إلى المغرب والأندلس.

يذكر القاضي أبو بكر بن العربي أنه انصرف إلى دراسة العلوم منذ طفولته، وقد هيا له والده أسباب التحصيل العلمي، وقد كان هدفه من دراسة هذه العلوم هو الرد على الملحد، والتمهيد لأصول الدين كما صرح بذلك.¹

لقد شاء القدر أن يرحل القاضي أبو بكر بن العربي إلى المشرق بعد ما خرج من بلده مكرها خائفا، غير أن خروجه هذا يعد سببا مهما في توسيع مداركه العلمية، والاطلاع على تراث علماء المشرق ومناهجهم في التصنيف والمناظرة وتحصيل العلوم، فقد وجد في المشرق ما افتقده في الغرب الإسلامي من علوم عقلية، ومناهج عقلية.

ونخبرنا القاضي أبو بكر بن العربي وهو في بداية رحلته العلمية إلى المشرق، أنه رأى جملة من الكتب التي جلبها الإمام أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي (ت474هـ) من المشرق، يقول عنها: «فدخل إلينا أحد السماسرة وعلى يديه رزمة كتب، فحل شناقها، وأرسل وثاقها، فإذا بها من تأليف السَّمناني² شيخ الباجي، فسمعت جميعهم يقولون: هذه كتب عظيمة، وعلوم جلييلة، جلبها الباجي من

1 - قانون التأويل، للإمام أبي بكر بن العربي، ص: 74، تحقيق محمد السلياني، طبعة دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الثالثة، 2014م.

2 - هو الإمام أبو جعفر محمد بن أحمد بن محمد السمناني (ت444هـ)، فقيه حنفي من كبار الأشاعرة، من مؤلفاته: البيان عن أصول الإيمان والكشف عن تمويهات أهل الطغيان، طبع بتحقيق د. عبد العزيز بن رشيد الأيوب، دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى: 1435هـ/2014م.

المشرق، فصعدت هذه الكلمة كبدي، وقرعت خلدي، وجعلوا يوردون في ذكره ويُصدرون ويحكون، أن فقهاء بلادنا لا يفهمون عنه، ولا يعقلون».³

ومن جملة العلوم التي وقف القاضي أبو بكر بن العربي على أغراضها، واعتبرها عمدة الدين، ثلاثة علوم، وهي:

- علم الكلام.
- وأصول الفقه.
- ومسائل الخلاف.

وهذه العلوم هي التي حصلها في بيت المقدس.⁴

ويفتخر القاضي أبو بكر بن العربي بأنه في رحلته إلى المشرق جلب معه إلى المغرب كتباً مهمة، أشار إلى بعضها في السراج، فيقول: «الحمد لله الذي جعلنا ممن رحل وحصل، وقيد وبلغ، وأوصل وأنذر»، بخلاف «ممن رحل وخاب، ولم يجلب لنفسه علماً، ولا أفاد شيئاً».⁵

عناية القاضي أبي بكر بن العربي بعلم الكلام:

من جملة العلوم التي أفرد لها إمامنا أبو بكر بن العربي بالتأليف، علم الكلام على الطريقة الأشعرية السنية.

وقد توسع في دراسة هذا العلم بعد رحلته إلى المشرق، حيث استفاد من علماء مصر، وبيت المقدس، ودمشق، وبغداد، والحجاز، كما انتسب إلى المدرسة النظامية وأخذ بها عن شيخه حجة الإسلام أبي حامد الغزالي (ت 505هـ)، الذي يعد أبرز علماء عصره، وأحد المنظرين الكبار في مجال الدراسات الكلامية على قواعد أهل السنة الأشاعرة.

ولا يكتفي الإمام أبو بكر بن العربي بمجرد نقل التراث الأشعري، بل يوصي بدراسته والاقتصار عليه، يقول في سياق رده على الفلاسفة: «... وعلى كل حال، فالذي أراه لكم على الإطلاق، أن تقتصروا على كتب علمائنا الأشعرية، وعلى العبارات الإسلامية، والأدلة القرآنية...»⁶

3 - المصدر السابق: ص: 76.

4 - نفسه، ص: 97.

5 - سراج المريدين، 4/ 398.

6 - العواصم من القواصم، ص: 80.

وسنقف في هذا السياق على إسهام أبي بكر بن العربي في الدراسات الكلامية، من خلال ما وقفنا عليه من تراثه الكلامي، من ذلك:

كتاب: المتوسط في الاعتقاد والرد على من خالف السنة من ذوي البدع والإلحاد:

وهو متن عقدي ألفه ابن العربي على الطريقة الأشعرية السنية، كما تناول فيه أهم مسائل علم الكلام، معتمداً مسلك أئمة المذهب الأشعري في خدمة هذا العلم، فبدأ كتابه بالبحث في نظرية المعرفة وما يرتبط بها من مقالات كلامية، لينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن أدلة إثبات وجود الخالق عز وجل، وما يجب له سبحانه وتعالى من صفات، وما يجوز، وما يستحيل، وهو ما يصطلح عليه بالإلهيات.

كما خصص الباب الثاني من الكتاب لمبحث النبوات، وذكر جملة من المسائل التي سار علماء الكلام الأشعري على إدراجها في آخر مصنفاتهم الكلامية، ويتعلق الأمر بالغيبيات؛ مثل الإعادة، والجنة والنار.. ليختم كتابه بالحديث عن الإيمان، والكفر، والشرك، والتوبة، والتفضيل بين الصحابة.

كتاب: الأمد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى:

هذا السفر العظيم، أفرده الإمام أبو بكر بن العربي لشرح أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى، مُتَّبِعاً في ذلك نهج شيوخ المذهب، من أمثال أبي القاسم القشيري، وابن فورك، وأبي حامد الغزالي، الذي ألف كتاباً سماه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى». وقد أشار إليه الإمام أبو بكر بن العربي بقوله: «... إلا بعضُ أشياخي فإنه جمع فيها كتاباً صغير الحجم، استوعب جملاً عظيمة، وأشار إلى أمور بديعة، هتك بها حجاب الإخفاء، وقام فيها بواجب جُمل الاحتفاء، وعلى كثرة ما جمعنا فيها، وأوثقنا من مبانيها، وأوضحنا لمعانيها، فإننا على منواله ننسج، وفي سبيله نستنهج، وربما أقحم فيها على سيرته أموراً لا تُطاق، وجاء بالفاظ يضيق عنها النطاق، سنفاوضه منها فيما أمكن، ونُعرض عما استبهم، احتشاماً لجانبه الرفيع، واغتناماً لبيانه البديع»⁷.

ومن هنا يظهر الخلاف المنهجي بين أبي بكر بن العربي وشيخه أبي حامد الغزالي في التعامل مع أسماء الله الحسنى، فالغزالي ينجح بها أحياناً إلى معان صوفية باطنية، وأبو بكر بن العربي يتعامل معها في حدود ما يسمح به الشرع والعقل.

وقد أشار الإمام أبو بكر بن العربي إلى هذا الخلاف المنهجي، الذي سماه تفاوضاً، تأدباً مع شيخه الغزالي، فقال: «ولقد فاوضت فيها أبا حامد الغزالي حين لقائي به بمدينة دار السلام، في جمادى الآخرة

سنة تسعين وأربع مائة، وقد كان راض نفسه بالطريقة الصوفية، من سنة ست وثمانين إلى ذلك الوقت نحواً من خمسة أعوام، وتجرد لها واصطحب مع العزلة، ونبذ كل فرقة...»⁸.

كتاب الأفعال:

وهو كتاب لطيف في بابه، ضمنه الإمام أبو بكر بن العربي توحيد الأفعال، بعد ما بين توحيد الأسماء والصفات في كتابه «الأمد الأقصى في شرح أسماء الحسنی وصفاته العلی»، وقد رتب كتابه على سور القرآن الكريم، ليسهل تناول هذا الموضوع الشائك.

والكتاب يسير على منهج المدرسة الأشعرية في تنزيه الله عز وجل عن مماثلة الحوادث، عن طريق تأويل تلك الأفعال، بإرجاعها إلى صفة من صفات المعاني السبعة، أو تأويلها تأويلاً يحقق التنزيه المطلق.

عناية القاضي أبي بكر بن العربي بالتراث الأشعري:

من خلال النظر في تراث الإمام أبي بكر بن العربي يظهر أنه كان له اطلاع واسع على جانب مهم من جوانب التراث الكلامي الأشعري السني، انطلاقاً من تراث الإمام أبي الحسن الأشعري نفسه، ومروراً بالغزالي، والجويني، وابن فورك، والقشيري، والباجي، نشير إلى ذلك في الآتي:

مؤلفات الإمام أبي الحسن الأشعري:

أشار ابن العربي إلى بعض مؤلفات الإمام أبي الحسن الأشعري (ت324هـ) ونقل منها في سياق انتصاره لمذهب أهل السنة والجماعة، ومن المؤلفات التي أشار إليها ونقل منها:

كتاب المختزن: وهو تفسير للقرآن الكريم، رد فيه الإمام أبو الحسن الأشعري على أبي علي الجبائي والبلخي مما حرفاه من تأويله.⁹

وهذا التفسير يعد في حكم المفقود، وقد احتفظ ابن عساكر الدمشقي بنبرة من مقدمة هذا التفسير جاء فيها:

”...فإن أهل الزيغ والتضليل تأولوا القرآن على آرائهم، وفسروه على أهوائهم، تفسيراً لم ينزل الله به سلطاناً، ولا أوضح له برهاناً، ولا روه عن رسول رب العالمين، ولا عن أهل بيته الطيبين، ولا عن السلف المتقدمين، من الصحابة والتابعين، افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين، وإنما أخذوا تفسيرهم عن

8 - العواصم من القواصم، ص: 24.

9 - تبين كذب المفتري، لابن عساكر، ص: 286.

أبي الهذيل العلاف، بيّاع العلف، ومتبعيه، وعن إبراهيم، نظام الخرز ومقلديه، وعن الفوطي وناصره، وعن المنسوب إلى قريته جُبَيّ ومتحليه...

ورأيت الجُبَّائي ألف في تفسير القرآن كتاباً أوله على خلاف ما أنزل الله عز وجل، وعلى لغة أهل قريته المعروفة بجبى، وليس من أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وما روى في كتابه حرفاً واحداً عن أحد من المفسرين، وإنما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه، ولولا أنه استغوى بكتابه كثيراً من العوام، واستزل به عن الحق كثيراً من الطغام، لم يكن لتشاغلي به وجه.¹⁰

وقد تحدث أبو بكر بن العربي عن النسخة الوحيدة لهذا التفسير، وأنه ضاع، ثم يستدرك ويقول: إنه رأى ابن فورك ينقل من هذا التفسير، فهل كان بين يديه نسخة من الكتاب، أو أخذها من أفواه الرجال، أو أنه وقف عليه؟¹¹

يقول ابن العربي: «... وانتدب أبو الحسن إلى كتاب الله فشرحه في خمسمائة مجلد، وسماه بالمختزن، فمناه أخذ الناس كتبهم، ومنهم أخذ عبد الجبار الهمداني كتابه في تفسير القرآن الذي سماه بالمحيط، في مائة سفر، قرأته في خزانة المدرسة النظامية بمدينة السلام، وانتدب له صاحب بن عباد، فبذل فيه عشرة آلاف دينار للخازن في دار الخلافة، وألقى النار في الخزانة واحترقت الكتب، وكانت تلك نسخة وحيدة لم يكن غيرها، ففقدت من أيدي الناس، إلا أني رأيت الأستاذ الزاهد الإمام أبا بكر بن فورك يحكي عنه، فلا أدري وقع على بعضه أم أخذه من أفواه الرجال، فعليكم بكتب القوم فهي الشفاء من الداء العياء». ¹²

الموجز:

وهو يشتمل على اثني عشر كتاباً، آخر كتاب فيه هو كتاب الإمامة.¹³

وقد سماه ابن عساكر الموجز الكبير، ولعله غير الأول، وقد أتى على عامة ما في كتب الإمام أبي الحسن الأشعري، وهي قريبة من مائة كتاب.¹⁴

أشار ابن العربي إلى هذا الكتاب في المتوسط، في سياق مسألة التكليف بما لا يطاق، فقد نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري القول بذلك. يقول ابن العربي: «اختلف علماؤنا في تكليف ما لا يطاق، فقال الشيخ

10 - نفسه، ص: 290.

11 - العواصم من القواصم، ص: 72. وقانون التأويل له، ص: 119، الأمد الأقصى، ج 1 ص: 262/ ج 1، ص: 320/ المتوسط، ص: 438.

12 - العواصم من القواصم، ص: 71. وقد أشار إليه في المتوسط، ص: 438، وقانون التأويل، ص: 119، الأمد، 263 و320.

13 - تبين كذب المفتري، ص: 280.

14 - نفسه، ص: 292.

أبو الحسن في «الموجز»: للباري تعالى أن يكلف الشيء من يعجز عنه، واحتج بأن الله تعالى كلف الملائكة الإنبياء لآدم بأسماء المسميات، وأمر أبا لهب أن يجمع بين الإيمان، والعلم بأنه لا يؤمن...»¹⁵

اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع؛

وهو من الكتب التي وصلتنا كاملة. وهو كتاب يشتمل على أساسيات العقيدة الأشعرية، في صورتها العقلية، وذلك من خلال عشرة أبواب. الباب الأول: الله وصفاته، الباب الثاني: الكلام في القرآن والإرادة، الباب الثالث: الكلام في الإرادة وأنها تعم سائر المحدثات، الباب الرابع: الكلام في الرؤية، الباب الخامس: الكلام في القدر، الباب السادس: الكلام في الاستطاعة، الباب السابع: الكلام في التعديل والتجويز، الباب الثامن: الكلام في الإيمان، الباب التاسع: الكلام في الخاص والعام والوعد والوعيد، الباب العاشر: الكلام في الإمامة.

وقد استنتج أحد الباحثين أن الإمام الأشعري في كتاب اللمع «يبدو أعمق تفكيراً، وأسلم منهجاً، وأشدّ عناية بالأدلة العقلية إلى درجة التعقيد أحياناً».¹⁶

وقد أشار ابن العربي إلى اللمع في كتابه «المتوسط» في سياق الحديث عن التكليف بما لا يطاق، حيث نسب إلى الإمام الأشعري تقسيم التكليف بما لا يطاق إلى أربعة أقسام.

يقول ابن العربي: «وقال الشيخ أبو الحسن في «اللمع»: تكليف ما لا يطاق أقسام أربعة:

إما لا يطاق؛ لأنه محال، فهذا لم يرد به الشرع، وذلك كالجمع بين الضدين،

وإما ألا يطاق؛ لأنه مستحيل أن يطيقه العبد، وإن كان مقدوراً، فلم يرد به أيضاً الشرع،

وإما ألا يطاق؛ لأن العبد عاجز عنه، فهذا أيضاً لم يرد به شرع،

وإما ألا يطاق؛ لأن العبد تارك له منشغل بضده، وحاله حال من لو أراد المأمور لقدر عليه، فهذا الذي

ورد به الشرع، كالكافر أمر بالإيمان وهو مشغول بالكفر...»¹⁷.

وعند الرجوع إلى كتاب «اللمع»، لا نجد هذا التقسيم الذي أورده ابن العربي، وإن كان الإمام الأشعري

قد أشار إلى مسألة التكليف بما لا يطاق، في سياق حديثه عن الاستطاعة.

15 - المتوسط في الاعتقاد، ص: 289.

16 - مقدمة الدكتور حمودة غرابة، لتحقيق اللمع، ص: 5.

17 - المتوسط، ص: 291،

يقول الإمام الأشعري: «فإن قال قائل: أليس قد كلف الله تعالى الكافر الإيمان؟ قلنا: نعم، فإن قال: يستطيع الإيمان؟ قيل له: لو استطاعه لآمن. فإن قال: أفكلفه ما لا يستطيع؟ قيل له: هذا كلام على أمرين، إن أردت بقولك أنه لا يستطيع الإيمان لعجزه عنه، فلا، وإن أردت أنه لا يستطيعه لتركه واشتغاله بضده، فنعم.»¹⁸

هذا، وقد ألف الإمام الأشعري اللمع الصغير، وهو الذي وصلنا، كما ألف كتابا سماه «اللمع الكبير»، وجعل اللمع الصغير مدخلا.¹⁹

مؤلفات الإمام أبي بكر بن فورك؛

يعتبر الأستاذ الإمام أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك (ت406هـ) أحد أقطاب المذهب الأشعري، وأوثق من حرر كلام الإمام أبي الحسن الأشعري في صورته النهائية، من حيث أصول المذهب وما تبنى عليه أدلته وحججه.

ومن أهم المؤلفات التي تبرز هذا الجانب، كتابه المسمى: «مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري».²⁰ لقد أشار ابن العربي إلى بعض مؤلفات ابن فورك، منها:

مشكل القرآن:

وهو كتاب لم يؤلف مثله في رأي ابن العربي.²¹

تفسير القرآن:

وهو من جملة التفاسير التي قرأها واستفاد منها أبو بكر بن العربي، وقد سار ابن فورك على نهج الإمام أبي الحسن الأشعري في تفسيره المسمى «المختزن».²²

مشكل الحديث وبيانه:

أشار ابن العربي إلى هذا المصنف.

18 - اللمع في الرد على الزيغ والبدع، ص: 98.

19 - تبين كذب المفترى، لابن عساكر، ص: 281.

20 - مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، طبع بتحقيق المستشرق الفرنسي دنيال جيماريه Daniel GIMARET.

21 - قانون التأويل، ص: 206.

22 - نفسه، ص: 119.

هذا، وقد ألف ابن فورك كتابا في مشكل الحديث، وهو مؤلف عظيم في بابه، تناول فيه الأستاذ أبو بكر بن فورك بعض الأحاديث التي يوهم ظاهرها التشبيه.²³

أسماء الله الحسنى:

أشار ابن العربي إلى هذا الكتاب في المتوسط، بقوله: «ورأيت لابن فورك في كتاب «الأسماء»، وهو كتاب جليل القدر، يآثر من هذا المختزن فوائد...»²⁴، يقصد تفسير الإمام أبي الحسن الأشعري. كما أشار إليه في السراج.²⁵

أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني (ت 403هـ) القاضي

يعتبر الباقلاني من كبار علماء المذهب الأشعري، وإليه يعزى إدخال المذهب الأشعري إلى الغرب الإسلامي انطلاقا من القيروان. وقد أشار ابن العربي إلى جملة من كتبه الكلامية منها:

هداية المسترشدين والمقنع في معرفة أصول الدين:

أشار أبو بكر ابن العربي إلى هذا المصنف العظيم في كتابه «الأمد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى» عند ذكر الاسم الأول من أسماء الله الحسنى: مريد.²⁶

وحسب النسخة المتوفرة من كتاب الهداية، فقد تناول الباقلاني جملة من المسائل الكلامية الشائكة، كمسألة الصفات، ومسألة خلق الأفعال، ومسألة الاستطاعة، ومسألة النبوات.²⁷

إعجاز القرآن:

وهو من أجل كتب الإمام الباقلاني -وصلنا هذا الكتاب كاملا-²⁸ وقد أشار إليه ابن العربي في السراج.²⁹

23 - طبع هذا الكتاب بتحقيق موسى محمد علي، مطبعة حسان القاهرة.

24 - المتوسط، ص: 439.

25 - سراج المريدين في سبيل الدين، ج 4 ص: 400.

26 - الأمد الأقصى، ج 2 ص: 74. وكتاب الهداية، يوجد منه مجلد في مكتبة الأزهر، يحتوي على 248 ورقة، وهذا القسم الذي بقي من الكتاب مقتصر على مبحث النبوات، أنظر مقدمة السيد أحمد صقر، محقق كتاب إعجاز القرآن للباقلاني، ص: 39، طبعة دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، بدون تاريخ.

27 - طبع كتاب هداية المسترشدين بتحقيق د. عمر يوسف عبد الغني حمدان، مكتبة عبق المسك، الأردن، الطبعة الأولى 1444هـ/2022م.

28 - إعجاز القرآن، للباقلاني، حققه السيد أحمد صقر، طبعة دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، بدون تاريخ.

29 - سراج المريدين في سبيل الدين، ج 4، ص: 409.

تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل :

وهو من أجل كتب الإمام الباقلاني³⁰.

أبو القاسم القشيري عبد الكريم بن هوازن (ت 465 هـ)

متكلم أشعري جمع بين الاشتغال بعلم الكلام وعلم التصوف، أشار أبو بكر بن العربي إلى مؤلفاته الآتية:

لطائف الإشارات:

وهو تفسير للقرآن الكريم على طريقة الصوفية.³¹ ويعد من أقدم التفاسير وأحسنها في هذا الباب. وقد أشار القاضي أبو بكر بن العربي إلى أن هذا التفسير من أحسن ما ألف على طريقة الصوفية، على الرغم من تكلف صاحبه.

يقول القاضي أبو بكر بن العربي: «ومن علم الباطن أن تستدل من مدلول اللفظ على نظير المعنى، وهذا باب جرى في كتب التفسير كثيرا، وأحسن ما ألف فيه كتاب «اللطائف والإشارات» للقشيري - رضي الله عنه -، وإن فيه لتكلفا، أوقعه فيه ما سلكه من مقاصد الصوفية، فخذوا ما تعلمون، وقفوا دون ما تجهلون، ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ (سورة الأنفال، الآية: 21).»³²

أساء الله:

أشار ابن العربي إلى هذا المصنف³³ في السراج.

أبو المظفر شاهفور بن طاهر بن محمد الإسفراييني (ت 471 هـ)

وهو متكلم أشعري اشتهر بكتابه «التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة»³⁴.

30 - طبع بتحقيق الأستاذين محمود الخصري ومحمد عبد الهادي أبي ريدة، كما أعاد نشره الأب رتشارد يوسف مارثي اليسوعي، منشورات جامعة الحكمة في بغداد سنة 1957م. وأيضا طبع بتحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر مؤسسة الكتب الثقافية بيروت-لبنان، سنة 1407هـ/1987م.

31 - طبع بمصر سنة 1969م بتحقيق الدكتور إبراهيم بسيوني.

32 - قانون التأويل للقاضي أبي بكر بن العربي، ص: 207، تحقيق محمد السليمان، طبعة دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الثالثة 2014م/ انظر سراج المريدين أيضا: ج 4، ص: 400.

33 - سراج المريدين في سبيل الدين ج 4، ص: 400/ ج 2 ص: 286 و 295.

34 - طبع هذا الكتاب بتحقيق كمال الحوت، كما حققه د. مجيد الخليفة، طبعة دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1429هـ/2008م.

له مؤلف عرف بالأوسط، أحال عليه في التبصير³⁵، وقد أشار ابن العربي إلى كتابه «المتوسط» في السراج.³⁶ وروى عنه من طريق أبي سعيد الزنجاني بالمسجد الأقصى.³⁷

مؤلفات الإمام الجويني

أشار ابن العربي إلى معظم مؤلفات إمام الحرمين أبي المعالي، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (ت478هـ) في أصول الدين، ووقف عليها وجلبها إلى المغرب.

من بين تلك المؤلفات:

الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد

وهو من أجل كتب الإمام الجويني، وعليه عول أهل المشرق والمغرب، حيث عكفوا عليه، ما بين شارح وناظم ومختصر.

والكتاب من حيث هندسته الكلامية، يشتمل على مقدمات نظرية تتعلق بأحكام النظر ومفهوم العلم. لينتقل بعد ذلك إلى مبحث الإلهيات فيتحدث عن حدوث العالم وإثبات محدثه، وما يجب له من صفات ومعاني أسماء الله الحسنى، ورؤية الله تعالى، وما يتفرع عن هذه الأصول من مباحث كلامية؛ كمبحث خلق الأفعال، والاستطاعة، والتعديل والتجوير، والصالح والأصلح. ثم الحديث عن النبوة، ثم السمعيات، ثم الأسماء والأحكام، ثم التوبة، ثم مبحث الإمامة العظمى.

وقد أشار ابن العربي إلى هذا الكتاب في عدة مواضع من مؤلفاته.³⁸

العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية

العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، كما سماها الإمام الجويني نفسه، وكما جاء في مقدمتها. نسبة إلى «نظام الملك» الوزير.

وتتضمن هذه الرسالة أركان الإسلام، تتصدرها قواعد العقائد، وهو القسم الذي وصل إلينا كاملاً، في حين لم يصل إلينا جزء من الكتاب يتعلق ببقية الأركان الإسلامية، ولعل ذلك راجع إلى اهتمام العلماء بالجانب العقدي، وإغفالهم لبقية المباحث الفقهية التي ضمنها الإمام الجويني في مؤلفات أخرى.⁽³⁹⁾

35 - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، ص: 180 و245 و396 و429.

36 - سراج المريدين، ج 4 ص: 408.

37 - العواصم من القواصم، ص: 27.

38 - المتوسط، ص: 290 و292، السراج، 2/ 478.

39 - نشر هذا الكتاب الشيخ زاهد الكوثري بالقاهرة سنة 1948م بمطبعة الأنوار مع مقدمة جيدة. كما طبع هذا المصنف بتحقيق د. محمد الزبيدي، وتأتي أهمية هذا الكتاب من كونه يمثل المرحلة الأخيرة لمعتقد الجويني، وانحيازه إلى مذهب السلف في مسألة الصفات الخبرية التي أمسك عن تأويلها. انظر: العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، (فصل في الإضراب عن تأويل المشكلات) ص: 165.

وأهم شيء يميز «العقيدة النظامية»، أن الإمام الجويني قرر فيها الرجوع إلى مذهب السلف الصالح، والعدول عن تأويل النصوص المتشابهة، فيقول في نص لا يقبل التأويل: «قد اختلفت مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة. وامتنع على أهل الحق اعتقاد فحواها، وإجراؤها على موجب ما تبدره أفهام أرباب اللسان منها. فرأى بعضهم تأويلها، والتزم هذا المنهج في أي الكتاب، وما يصح من سنن الرسول صلى الله عليه وسلم.

وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على موارد، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى. والذي نرتضيه رأياً، وندين الله به عقداً، اتباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع وترك الابتداع، والدليل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة.

وقد درج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورضي عنهم على ترك التعرض لمعانيها، ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام، والمستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة، والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً ومحتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة.

وإذا انصرف عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك قاطعاً وأنه الوجه المتبع، فحق على ذي الدين أن يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب تبارك وتعالى»⁴⁰

وقد أشار ابن العربي إلى «العقيدة النظامية» ضمن الكتب التي جلبها من المشرق،⁴¹ وقد كتبها ببيت المقدس في محرم سنة 488هـ.⁴²

وقد أشار محقق «العقيدة النظامية» الشيخ زاهد الكوثري إلى ما ورد في الأصل المنقول عنه، بعد ذكر وريقات كمقدمة لأقسام الفقه من الكتاب على مذهب الشافعي، قال الشيخ الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي شيخنا -رضي الله عنه-: «تركت باقي الكتاب، لأنه على مذهب الشافعي -رضي الله عنه- وكان مقدار ما ذكر منه مقدار «التلقين» لعبد الوهاب المالكي البغدادي رضي الله عنه».⁴³

40 - العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، للجويني، ص: 32-34.

41 - سراج المريدين في سبيل الدين، 4/ 408.

42 - العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، ص: 96، تحقيق الشيخ زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، 1412هـ/ 1992م.

43 - العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، للإمام الجويني، تحقيق وتعليق محمد زاهد الكوثري، ص: 68.

الشامل في أصول الدين

وهو من الكتب المهمة وهو موسوعة في علم الكلام الإسلامي على طريقة أهل السنة والجماعة، جمع فيه الإمام الجويني ما تفرق في غيره.⁴⁴

ويعد هذا الكتاب من مرويات أبي بكر بن العربي، فقد أشار ابن خير الإشبيلي (ت575هـ) في فهرسته إلى ذلك فقال: «حدثني بذلك كله شيخنا القاضي أبو بكر ابن العربي - رحمه الله - قال: حدثني بكتاب «الإرشاد» الشيخ أبو حامد محمد بن محمد الطوسي الغزالي، وأبو سعد محمد بن طاهر المقدسي، الزنجاني كلاهما عنه... قال: وحدثني بكتاب «الشامل» له أبو الحسن علي القروي العسقلاني، قال: أملى علينا الإمام أبو المعالي رحمه الله القول في القدر وخلق الأعمال والتعديل والتجوير والصالح والأصلح واللفظ والرد على الفلاسفة والمنجمين، بأن أبا سعد محمد بن طاهر الزنجاني المقدسي أخبرنا بذلك كله عنه ولم يتم.»⁴⁵

غياث الأمم في التياث الظلم

غياث الأمم في التياث الظلم، المشهور اختصاراً بالغيثي، وهو مصنف عظيم، أفرده إمام الحرمين الجويني للإمامة العظمى، باعتبارها رئاسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا.⁴⁶

أشار الإمام أبو بكر بن العربي إلى هذا الكتاب في السراج، ضمن الكتب التي جلبها من المشرق.⁴⁷

مؤلفات حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

يعد حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت505هـ) من أبرز الشيوخ الذين تأثر بهم الإمام أبو بكر بن العربي، على الرغم من مراجعة شيخه في أمور لها علاقة بالتصوف، ومن بين مؤلفات حجة الإسلام أبي حامد الغزالي التي يشير إليها الإمام أبو بكر بن العربي:

44 - نشر الكتاب الأول منه (كتاب الاستدلال) هلموت كلوبفر، وقد زعم أنه أول من اكتشف هذا الكتاب بفضل إشارة في تاريخ الأدب العربي، لبركلان، ص: 6 من مقدمة الكتاب. على الرغم من وجود نسخة مصورة من الكتاب في دار الكتب المصرية شهيرة قبل اكتشاف كلوبفر. ومهما يكن من شيء فإن طبعة كلوبفر حافلة بالأخطاء. وقد طبع كتاب الشامل مع وضع حواش باهتة: عبد الله محمود محمد عمر، منشورات محمد علي بيضون، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1999م. والكتاب في حاجة إلى تحقيق علمي دقيق. أنظر كتاب «مذاهب الإسلاميين» تأليف د. عبد الرحمن بدوي، ج 1 ص: 695. طبعة دار لبنان للطباعة والنشر، 1987م. كما نشرته مستقلاً د. فوقية حسين، سنة 1964م.

45 - فهرسة ابن خير الإشبيلي، ص: 224.

46 - الغياثي، غياث الأمم في التياث الظلم، ص: 217 تحقيق أ.د. عبد العظيم محمد الديب، دار المناهج، لبنان-بيروت، الطبعة الرابعة 1435هـ/2013م.

47 - سراج المريدين في سبيل الدين، ج 4، ص: 408.

الاقتصاد في الاعتقاد:

وهو من المتون العقدية الأشعرية المهمة، التي تناولت مسائل العقيدة في صورتها العقلية والنقلية، وقد اشتمل هذا الكتاب على تمهيدات، تجري مجرى التوطئة والمقدمات، وعلى أربعة أقطاب، تجري مجرى المقاصد والغايات.⁴⁸

أشار الإمام أبو بكر بن العربي إلى هذا المصنف في السراج.⁴⁹

المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى

أشار ابن العربي إلى هذا الكتاب في مقدمة كتابه «الأمد الأقصى»، في سياق اشتغاله بشرح أسماء الله الحسنى فقال: «... إلا بعضُ أشياخي، فإنه جمع فيها كتاباً صغير الحجم، استوعب جملاً عظيمة، وأشار إلى أمور بديعة، هتك بها حجاب الإخفاء، وقام فيها بواجب جمل الاختفاء، وعلى كثرة ما جمعنا فيها، وأوثقنا من مبانيها، وأوضحنا لمعانيها، فإننا على منواله ننسج، وفي سبيله نستنهج...»⁵⁰

ومع ذلك فإن ابن العربي لا يتفق مع شيخه الغزالي في بعض المسائل المتعلقة بأسماء الله الحسنى، فقد ناقشه فيها وأنكرها عليه أشد الإنكار.⁵¹

خاتمة

بعد هذا العرض المختضب حول جهود الإمام أبي بكر بن العربي في حفظ التراث الأشعري، أخلص إلى النتائج الآتية:

- لقد تعامل أبو بكر بن العربي مع مصادر العقيدة الأشعرية مباشرة، واستفاد منها، ونقل عنها، وفي مقدمتها مؤلفات الإمام أبي الحسن الأشعري نفسه.
- لم يشر ابن العربي إلى بعض المؤلفات المنسوبة إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ككتاب «الإبانة عن أصول الديانة»، و«رسالة إلى أهل الثغر»، على الرغم من وجودهما، وهذا يجعلنا نستنتج أن هذين الكتابين لم يحتفل بهما علماء المغرب، ولم يلتفتوا إليهما إطلاقاً.

48 - الاقتصاد في الاعتقاد، ص: 4، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1403هـ/ 1983م.

49 - سراج المريدين في سبيل الدين، ج 4 ص: 409.

50 - الأمد الأقصى، ج 1 ص: 155.

51 - الأمد الأقصى، ج 1 ص: 499، «من ذلك تفسير الإمام الغزالي لاسم: الظاهر، بأنه تعالى إنما خفي مع ظهوره لشدة ظهوره، وظهوره سبب بطونه، ونوره هو حجاب نوره...» المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص: 136.

هذا، وقد أشار الإمام أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (ت 575هـ)، في فهرسته إلى رسالة لأهل الثغر باب الأبواب، يلتمسون فيها شرح أصول مذاهب التابعين للكتاب والسنة، منسوبة للشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يعقوب بن مجاهد الطائي البصري (ت 370هـ)⁵²، أحد تلامذة الإمام أبي الحسن الأشعري، كما أن ما ورد في الرسالة ينسجم تماماً مع العنوان الذي ذكره ابن خير الإشبيلي: حيث جاء فيها حسب النسخة المنسوبة إلى الإمام أبي الحسن الأشعري: «... ووقفت على ما التمستموه من ذكر الأصول التي عول سلفنا -رحمة الله عليهم- عليها، وعدلوا إلى الكتاب والسنة من أجلها...»⁵³ فهل هي نفس الرسالة المنسوبة إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، أو هي رسالة ابن مجاهد الطائي؟

• لقد فاوض أبو بكر بن العربي الأئمة الأشاعرة في بعض المسائل العقدية، كما فعل مع شيخه الغزالي، كقوله: «إنَّ القلب إذا تطهر عن علاقة البدن المحسوس، وتجرد للمعقول، انكشفت له الحقائق، وهذه أمور لا تدرك إلا بالتجربة لها عند أربابها بالكون معهم، والصحبة لهم...»⁵⁴. وكشرحه لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ورأيت الجنة، فتناولت منها عنقوداً، فلو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا». فقد شرح الغزالي ذلك، وكتب بخط يده: «ثمار الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة، والمعنى في الحديث: أن ثمار الجنة إذا تعلقت بها آمال الناظرين، أو قابلتها أبصارهم، حدثت مثلها في نفوسهم، حدوث أمثال المرائي في المرأة، وأعيان الرائي لم تتبدل ذواتها، ولا رامت مكانها.»⁵⁵ فقد رفض ابن العربي هذا التأويل، واعتبره مخالفاً للاعتقاد، «لا نقول به اعتقاداً، ولا نرضاه ديناً، فإنه لا يشهد له عقل، ولم يرد به نقل»⁵⁶.

• نقل القاضي أبي بكر بن العربي كتاب «العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية» إلى جانب كتاب «الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد»، لإمام الحرمين الجويني، يساعد على الوقوف على تطور المذهب الأشعري في التعامل مع بعض مسائل الاعتقاد التي تدرج ضمن المتشابه، ففي «الإرشاد» يؤول، وفي «النظامية» يفوض، وهو المذهب النهائي الذي استقر عليه.

وهذا المنهج كان سائداً في زمن القاضي أبي بكر ابن العربي، وقد أشار إليه الإمام أبو الحجاج يوسف بن موسى الضرير (ت 520هـ) في منظومته، فقال:

52 - فهرسة ابن خير الإشبيلي، ص: 224.

53 - رسالة إلى أهل الثغر، المنسوبة إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ص: 133، تحقيق ودراسة عبد الله شاکر محمد الجنيدى، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، 1422هـ/ 2002م.

54 - العواصم من القواصم، ص: 25.

55 - نفسه، ص: 93.

56 - نفسه، ص: 93.

فَكُلُّ ما ظاهره التشبيهُ وما ينافي المجدَّ والتنزيه
فحكمه الوقف أو التأويلُ كلاهما قال به جليل
وكلُّهم قال بترك الظاهرُ لأنه يدعو الجهولَ غامر⁵⁷

كما أن بعض الشراح المتأخرين يحكون هاذين المذهبين، وهو ما أشار إليه الإمام اللقاني في جوهرة التوحيد بقوله:

وكلُّ نص أوهم التشبيهاً أوله أو فوض ورم تنزيهاً

فهرس المصادر والمراجع

- 1 - إعجاز القرآن، للإمام أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الخامسة، دار المعارف القاهرة.
- 2 - الأمد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، للإمام الحافظ أبي بكر بن العربي المعافري الإشبيلي، ضبط نصه د. عبد الله التوراتي، وخرج أحاديثه أحمد عروبي، طبعة دار الحديث الكتانية، طنجة، الطبعة الأولى: 1436هـ / 2015م.
- 3 - الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، لإمام الحرمين الجويني، تحقيق د. محمد يوسف موسى، مطبعة السعادة، مصر، 1990م.
- 4 - آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ونقده للفلسفة اليونانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية، 1981م.
- 5 - أصول أهل السنة والجماعة، المسماة برسالة أهل الثغر، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق، د. محمد السيد الجلنيد.
- 6 - الاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد الغزالي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م.
- 7 - الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للقاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني، تحقيق محمد زاهد الكوثري، طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1993م.

57 - منظومة: التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد، لأبي الحجاج يوسف بن موسى الضير، ص: 112، تحقيق سمير قوبع، محمد العمراني، نور الدين شعبي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالملكة المغربية، 1435هـ / 2014م.

- 8 - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة، لأبي المظفر الأسفراييني، دراسة وتحقيق، د. مجيد الخليفة، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 2008م.
- 9 - تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر الدمشقي، عني بنشره القدسي، طبعة دار الكتاب العربي 1979م.
- 10 - تمهيد الأوائل و تلخيص الدلائل، للقاضي أبي بكر الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، 1987م.
- 11 - كتاب التمهيد، تأليف القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني، عني بتصحيحه ونشره الأب رتشد يوسف مكارثي اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت، 1957م.
- 12 - الحدود في الأصول (الحدود والموضوعات)، تأليف الأستاذ أبي بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني، علق عليه، محمد السليمان، طبعة دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1999م.
- 13 - رسالة إلى أهل الثغر، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق عبد الله شاكر محمد الجندي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، 1422هـ/ 2002م.
- 14 - سراج المريدين في سبيل الدين، للإمام أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق د. عبد الله التوراتي، طبعة دار الحديث الكتانية، طنجة، الطبعة الأولى، 1437هـ/ 2017م.
- 15 - الشامل في أصول الدين، للإمام الجويني، تحقيق د. علي سامي النشار وآخرون.
- 16 - الشامل في أصول الدين، (كتاب الاستدلال)، حققه المستشرق هلموت كلوبفر، طبعة دار العرب، القاهرة، 1989م.
- 17 - شرح مرشدة محمد بن تومرت، لأبي عبد الله بن خليل السكوني الإشيلي، تحقيق يوسف احنانا، طبعة دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى، 1993م.
- 18 - العواصم من القواصم، للإمام أبي بكر بن العربي، تحقيق د. عمار الطالبين، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1417هـ/ 1997م.
- 19 - عقيدة أبي بكر المرادي الحضرمي، تحقيق الدكتور جمال علال البختي، منشورات مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية بتطوان، التابع للرابطة المحمدية للعلماء، الطبعة الأولى، 1433هـ/ 2012م.

- 20 - العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، تأليف إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، تحقيق محمد زاهد الكوثري، طبعة المكتبة الأزهرية للتراث، مصر 1992م.
- 21 - الغياثي، غياث الأمم في التياث الظلم، لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله، تحقيق د. عبد العظيم محمد الديب، دار المناهج المملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة، 1435هـ / 2014م.
- 22 - فهرست ابن خير الإشيلي، للإمام أبي بكر محمد بن خير الإشيلي، وضع حواشيه محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان الطبعة الأولى، 1419هـ / 1998م.
- 23 - فهرست بن خير الإشيلي، حققه وضبط نصه، وعلق عليه بشار عواد معروف، ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى 2009م.
- 24 - قانون التأويل، للإمام القاضي أبي بكر بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الإشيلي، دراسة وتحقيق، محمد السلياني، طبعة دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الثالثة 2014م.
- 25 - الكتاب المتوسط في الاعتقاد والرد على من خالف السنة من ذوي البدع والإلحاد، تحرير الحافظ أبي بكر بن العربي المعافري الإشيلي، ضبط نصه وخرج أحاديثه الدكتور عبد الله التوراتي، طبعة دار الحديث الكتانية، طنجة، الطبعة الأولى 1436هـ / 2015م.
- 26 - كتاب التمهيد، للإمام القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، عني بتصحيحه ونشره الأب رتشد يوسف مكارثي اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت، 1957م.
- 27 - كتاب المنهاج في أصول الدين، لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق سابين شميته، الدار العربية للعلوم-ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، 1428هـ-2007م.
- 28 - كتاب الأفعال، للقاضي أبي بكر بن العربي المعافري الأندلسي، تحقيق ذة. نبيلة زكري، منشورات مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية بتطوان، التابع للرابطة المحمدية للعلماء، الطبعة الأولى، 1438هـ / 2017م.
- 29 - كتاب الحدود في الأصول، تأليف الأستاذ أبي بكر محمد بن الحسين بن فورك الأصبهاني، قدم له وعلق عليه محمد السلياني، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1999م.
- 30 - لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول، لأبي الحجاج يوسف بن محمد المكلاقي، تحقيق د. فوقية حسين، طبعة دار الأنصار القاهرة، الطبعة الأولى، 1977م.

- 31 - اللمع في الرد على أهل الزيغ و البدع، لأبي الحسن الأشعري، صححه وقدم له وعلق عليه الدكتور حمودة غرابة، المكتبة الأزهرية للتراث، بدون تاريخ.
- 32 - مجرد مقالات أبي الحسن الأشعري، من إملاء الإمام أبي بكر محمد بن الحسن بن فورك، تحقيق دانيال جيماريه، طبعة دار الشروق، بيروت.
- 33 - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن الأشعري، عني بتصحيحه هلمت ريتز، طبعة دار النشر فرانزشتاير فيسبادن، الطبعة الثالثة، 1980م.
- 34 - مشكل الحديث وبيانه، للإمام أبي بكر بن فورك، تحقيق موسى محمد علي، مطبعة حسان، القاهرة.
- 35 - المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، عني به بسام عبد الوهاب، دار ابن حزم، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ/ 2003م.
- 36 - مع القاضي أبي بكر بن العربي، سعيد أعراب، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1407هـ/ 1987م، بيروت-لبنان.
- 37 - المرجع في تاريخ علم الكلام، تحرير زابينه شميته، ترجمة د. أسامة شفيع السيد، تقديم العلامة حسن الشافعي، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، بيروت، 2018م.
- 38 - هداية المسترشدين، للإمام الباقلاني، تحقيق د. عمر يوسف عبد الغني حمدان، مكتبة عبق المسك، الأردن، الطبعة الأولى، 1444هـ/ 2022م.

الدّرس العقديّ الأشعريّ بالمغرب:

المعالم والخصائص

• د. رشيد عمّور

أستاذ التعليم العالي بالرشيدية

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين وإمام المتقين سيّدنا محمّد، وعلى آله الطّيبين الطّاهرين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛

فإنّ الكلام عن العقيدة هو كلام عن رأس الأمر كلّ، وعن أساس الإسلام وركيزته، فأوّل ما يجب على المكلفين هو تحصيل عقيدتهم وتثبيتها بالأدلة النقليّة والعقليّة، لذلك كان أوّل واجب على المكلف كما قرر السادة الأشاعرة هو معرفة الله، أو النظر المؤدي إلى معرفة الله، على خلاف بينهم في ذلك¹.

وقد اختار المغاربة منذ قرون المنهج الأشعري في تقرير العقائد، حتى غدت المدرسة الأشعرية المغربية ذات معالم خاصة بها، واستطاعت من خلالها ترسيخ قيم الوسطية والاعتدال في واقع الناس ومجتمعهم. وسأحاول في هذا المقال إبراز معالم الدّرس العقديّ الأشعريّ بالمغرب وخصائصه، وسبب اختيار المغاربة لهذا المذهب، وبيان أثر هذا الاختيار في حفظ كليات الدين.

هذا الاختيار أحد أهم الرّكائز الأساسيّة التي حَفَظَت هذا البلدَ وساهمت في استقراره، بالإضافة إلى المذهب المالكي والطريقة الجنيدية، والتمسك بإمارة المؤمنين.

1 - حكى الأشاعرة عن الأشعري القول بأن أوّل واجب على المكلف هو: "المعرفة". والمعرفة عندهم معناها: معرفة وجود الله وتفردّه بخلق العالم. وعند الباقلاني أوّل واجب: النظر، فقال: "أوّل ما فرض الله عز وجل على جميع العباد النظر في آياته... والثاني من فرائض الله عز وجل على جميع العباد الإيمان به والإقرار بكتبه ورسوله...". وأوّل واجب على المكلف عند الجويني: القصد إلى النظر، فقال: "أوّل ما يجب على العاقل البالغ باستكمال سن البلوغ أو الحلم شرعاً، القصد إلى النظر الصحيح". للتوسع انظر: الإرشاد (4)، الشامل (ص: 121)، أبكار الأفكار (1/ 170)، وشرح المواقف (1/ 278)، المواقف (1/ 165)، ولوامع الأنوار البهية (1/ 112)، وحاشية البيجوري على شرح جوهرة التوحيد (82).

سائلاً ومُستشكلاً ما يلي: ما هي أبرز معالم الدرس العقدي الأشعري بالمغرب؟ هل كان للدرس العقدي الأشعري أثر في تشكيل الشخصية المغربية؟ بماذا تميزت المدرسة الأشعرية المغربية عن المشرقية؟ وهل هناك نماذج مشرقة في تاريخ أمتنا كان لها دور في التأسيس لهذه المعالم والسمات؟ لماذا اختار المغاربة المذهب الأشعري؟

معالم وخصائص الدرس الأشعري المغربي

عند استقراءنا لما أبدعه المغاربة من تصانيف عبر قرون خلت، منذ دخول الفكر الأشعري للغرب الإسلامي في القرن الرابع إلى اليوم، نجدُ المغاربة أبدعوا في تنزيل القضايا العقدية، وأبدعوا في مناقشة الخصوم، وأبدعوا في الاستدلال الكلامي، تصنيفاً وتأليفاً، إلى غير ذلك من المعالم والخصائص التي برزت في الفكر الكلامي المغربي، وقد تتبعت هذه المعالم والخصائص، فوجدت أن من أهم معالمها الكبرى ما يلي:

أولاً: إرجاع كل مسألة عقدية إلى أصلها من القرآن والسنة.

الناظر في علم الكلام الأشعري المشرقي يجد أن بعض التأليف تكاد تخلو من النصوص النقلية التي يستعملها المتكلم في الاستدلال، لأن غالبية كلام المتكلم هو مع خصم إما من أصحاب الديانات الأخرى، أو من الفرق الضالة، فالغالب المستعمل فيها المنهج الحجاجي العقلي القائم على الحجة والبرهان والمنطق. لكن ما يميز المتكلم المغربي هو جمعه بين الاستدلال العقلي والنقلي، ومحاولة الاستدلال على كل مسألة وكل أصل من النقل، ومن أمثلة ذلك ما فعله الإمام عبد الجليل الديباجي (كان حياً: 478هـ) في استدلاله النقلي على مسألة الآجال..

يرى الإمام الديباجي رحمه الله أن الميت يموت بأجله المقدور، وأنه يجوز وصف الله تعالى بالقدرة على ما لم يفعله، وذلك بأن يُبْقِيَ من أماته ابن عشرين سنة إلى ثلاثين سنة أو ما هو أكثر، وإن كان لا يفعل ذلك كان المعلوم عن حاله أنه يميته ابن عشرين سنة، ولن يجوز ترك فعل ما في المعلوم أنه يفعل، وإن كان مقدوراً تركه على أنه لو ترك لكان السابق في المعلوم أنه يترك².

وهذا خلاف ما ذهب إليه المعتزلة من أنه إنما يوصف بالقدرة على ما علم أنه لا يفعله، فإنه لا يوصف بالقدرة عليه³.

2 - التسديد في شرح التمهيد، للإمام عبد الجليل الديباجي (2/ 578).

3 - انظر: المغني للقاضي عبد الجبار، (ج: 8، المجلد: 3، ص: 72 وما بعدها). شرح الأصول الخمسة، (ص: 390، 391، 392، 781). والمجموع المحيط بالتكليف (2/ 406) ومجرد المقالات (135، 136). وانظر: الفصل لابن حزم: (ج: 4، ص: 148).

ويدلل الإمام الديباجي بالنقل على بطلان ما قالوه بقوله تعالى: ﴿أوليس الخلق السماوات والأرض بفالمدر على أن يخلق مثلهم﴾⁴.

وأفادنا المصنف رحمه الله أنّ المعتزلة دهشوا عند ذكر هذا الدليل⁵.

ومن الأدلة النقلية التي ذكرها أيضا قوله تعالى: ﴿بلى فالمدرين على أن نسوي بنانه﴾⁶. وقد قال أهل التفسير⁷: إنه أراد أن يجعل يده متساوية البنان كخف البعير، وحافر الحمار، فأثبت تعالى أنه قادر على ما علم أنه لا يكون.

ثانيا: إنزال وتقريب علم الكلام إلى العامة

ثم إنَّ هناك خاصية في الفكر العقدي المغربي تمثلت في إنزال علم الكلام إلى العامة وتبسيطه وتقريبه، اضطرت هذه الخاصية - المفكرين تباعا إلى تبسيط مضامينه واختصارها، حتى يسهل على الناس تناولها، وحتى لا يسبب أي شيء فيها لنفورهم منها وبعدهم عنها.

وعندنا نصوص كثيرة تدل على هذا منها: عقيدة أبي بكر المرادي الحضرمي، والمرشدة، والبرهانية، وأم البراهين، هذه المصنفات التي كان عوام المغاربة يحفظونها، وهي سهلة في حفظها وفهمها، عميقة في معانيها ودلالاتها. وأول من أبدع في هذا الأمر علماء العقيدة المغاربة الذين قصدوا بهذا إصلاح وتقريب العقائد إلى الناس، وكان القصد منه إصلاح المجتمع ومراعاة أحوال الناس.

ثالثا: استقلالية الفكر الأشعري المغربي عن المشرقي

فالنظر المتفحص في النصوص العقدية المغربية يدرك أن المدرسة المغربية العقدية كانت مدرسة مكتملة في منهجها ومميزاتها، ولها خصوصيتها التي ميزتها عن غيرها خلافا لما هو مُسلَّم عند كثير من الباحثين باتباع المغاربة للمشاركة في علم الكلام! وهذا كلام لا يصح. وهناك أدلة على هذا، سأكتفي بذكر مثال واحد يدل على هذا الإبداع المغربي وعلى رفضه لكل ما لا يتناسب مع طبيعة الناس ومجتمعهم وأحوالهم، أو يرفضه الاستدلال العقلي عند المتكلم المغربي، ففي:

مسألة تسمية الفاسق الملي مؤمنا:

المشهور أنه يجوز أن يطلق على العاصي المصيب للكبائر اسم الفاسق من غير تقييد.

4 - سورة يس، من الآية (80).

5 - التسديد في شرح التمهيد (2/ 579)، تحقيق: رشيد عمور، ط: الرابطة المحمدية للعلماء 1444هـ/ 2022م.

6 - سورة القيامة الآية (4).

7 - معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، (5/ 254). معاني القرآن، للنحاس، (5/ 52). تفسير الطبري، (24/ 50) ت: شاكِر. تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، (3/ 520) تفسير ابن فورك (3/ 93).

ويرى الإمام عبد الجليل الربيعي أن هذا الإطلاق لعلّه عادةٌ عندهم أي (المشاركة)، أنه لا يُسمّى فاسقاً مُطلقاً إلاّ الكفار، وإلاّ فنحن (المغاربة) نُخبرُ أن يطلق على العاصي المصيب للكبائر اسم فاسق من غير تقييد؛ لأن إطلاقه عندنا لا يفهم منه الكفر⁸.

وهنا يظهر تميز المتكلم المغربي وإمامته، وتفردّه واجتهاده، حيث إن الإمام الديباجي جعل فرقابين علم الكلام المغربي والمشرقي ولذلك قال: ((عندهم وعندنا))، فهذا دليل على أن المدرسة الأشعرية بالغرب الإسلامي كانت لها خصوصيتها واستقلاليتها الفكرية عن المدرسة الأشعرية المشرقية الباقلانية.

وهذا الكلام مخالف لما يراه بعض الباحثين - وإن كانت المدرسة الباقلانية هي الأصل التي ينطلقون منها-؛ فلم يكن المغاربة تبعاً للباقلاني أو لمدرسة المشرق في كل صغيرة وكبيرة؛ فمنهجهم العام كان أشعرياً، ولكن كانت لهم اجتهاداتهم الخاصة وآراؤهم التي ناقشوا بها شيوخ المذهب؛ وفي هذا دلالة على استقلالية المدرسة الأشعرية بالغرب الإسلامي فكرياً، وأنها لم تكن تبعاً للمدرسة الأشعرية المشرقية في كل شيء كما يدّعيه البعض، وهذا ما يعطي معالم وسمات خاصة للدرس العقدي الأشعري المغربي، والله أعلم.

رابعاً: قلة اختلاط قضايا العقيدة بمباحث الفلسفة والمنطق عند المغاربة

من معالم المنهج الإصلاحي العقدي عند المغاربة: قلة اختلاط قضايا العقيدة بمباحث الفلسفة والمنطق، إلا في حالات يقتضيها مقام الرد على الخصوم، كما فعل متأخرو الأشاعرة في المشرق، وقد قصد علماء العقيدة المغاربة هذا، وحاولوا جهدهم أن تبقى العقيدة صافية من مباحث الفلاسفة خصوصاً في المتون التي يقصد بها العامة.

فقد ظل عندهم مبحث العقائد مبحثاً مبسطاً، وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا المنطق والفلسفة والرد على الخصوم، وإنما كان غرض العالم المغربي تقريب العقائد للناس وإبعاد الشبهات عنه بحجة العقل والنقل، دون الإكثار في استعمال المنطق الأرسطي، ولنا في المؤلفات المغربية خير دليل. منها: المرشدة؛ وأم البراهين؛ ومقدمات المراشد، والعقيدة الصُّغرى، والمرشد المعين⁹.

بينما نجد في مؤلفات المشاركة صعوبة الفهم والدّرس حتى من أهل العلم، فما بالك بطلّابه أو بالعوام؟ فكُتِبَ الرّازي اليوم لا يمكن لأبيّ كان أن يقرأها ويفهمها.

8 - التسديد في شرح التمهيد، للإمام عبد الجليل الديباجي، (2/ 600).

9 - مما يشار إليه هنا أن المغاربة حيناً ألفوا كانوا يميزون الفئة المستهدفة من التأليف فحينما كتبوا عقائد للعوام بسطوا فيها واختصوا وجمعوا الكلم والحكم، وحينما ألفوا من أجل الرد على الخصوم أفادوا وأجادوا وأبدعوا وأفحموا بحجة العقل والبرهان، وهذا قل من ينتبه إليه.

خامسا: عدم التعمق في تأويل الصفات

من المعالم البارزة في الدرس العقدي الأشعري: عدم التعمق والتفلسف في تأويل الصفات، ولكنهم في الوقت نفسه لا ينكرون وظيفة العقل ولا يرفضون العقلنة السليمة والمعتدلة، فبعضهم أولوا ونزهوا، وبعضهم فوضوا بلا كيف ولا معنى¹⁰. وقد فعل السلف كلا الأمرين.

والناظر في رسالة الإمام ابن أبي زيد القيرواني، يدرك هذا المعنى بوضوح، حيث أثبت الله تعالى الصفات دون تشبيه أو تأويل، في أسلوب دعوي إصلاحي لا غموض ولا تعمق، قال رحمه الله متحدثاً عن صفاته تعالى: «وله الأسماء الحسنى والصفات العلى لم يزل بجميع صفاته وأسمائه، تعالى أن تكون صفاته مخلوقة وأسماءه محدثة»¹¹.

والناظر أيضا في كتاب المتوسط في الاعتقاد للإمام ابن العربي نجده قصد عدم التعمق في القضايا العقدية، فقال رحمه الله في المتوسط: «الرحمن على العرش استوى»¹²، «وهو الفاهر فوق عباده»¹³. قلنا: قال جماعة من أهل العلم: نُمرُّه ولا نتأوله؛ وقالت طائفة أخرى: هو صفة فعل؛ وقال ثالثة: هو بمعنى استولى. والكل عندي في حسن الاعتقاد، وسلامته عن مذهب أهل الإلحاد سواء، وإن كان بعضه أقرب إلى الاهتداء، والباب من وكيد العلم وله مواضع يستقصى فيه إن شاء الله»¹⁴.

وهذا المتوسط كان قصدا أساسا عمدة ابن العربي في هذا الكتاب في عرض القضايا العقدية والكلامية، وقد صرح بهذا في غير موضع، من ذلك أثناء حديثه عن مسألة وجوب المعرفة والنظر بالشرع لا بالعقل، فقال: «وقد سرد العلماء في ذلك أدلة قويمة؛ لأنها من المسائل العظيمة، هذا يغني عنها على حكم المتوسط فيها». وقد تكررت عبارته هذه مرات عدة، انظر مواضعها في الإحالة أدناه¹⁵.

وقال في موضع آخر: «وهذه الأسماء اصطلاحية قصد الإفهام، وهذه القسمة ضرورية عقلية لا يتعين فيها الانقسام، ويكفي في المتوسط هذا المقدار»¹⁶. وعنوان الكتاب نفسه خير دليل على قصده

10 - يقول الإمام اللقاني في الجوهرية: وكل نص أوهم التشبيه* أوله أو فوض ورم تنزيها.

11 - الرسالة (7). وانظر: الفواكه الدواني في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني (40/1). وحاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني (50/1). وشرح زروق على الرسالة (33/1).

12 - سورة طه (4).

13 - سورة الأنعام (19).

14 - المتوسط (257).

15 - المتوسط (118). وانظر أيضا (168). وانظر: (200) و (215) و (217). وانظر: (235-236) و (241) و (263) و (368).

16 - المتوسط، لابن العربي (122).

للتوسط في عرض القضايا العقدية، والاستدلال لها، وصد الشبه والدفاع عنها. وهذا القصد كان حاضرا عند المتكلم المغربي تأليفا وتدريسا.

سادسا: الالتزام والانتصار لأقوال مؤسس المذهب أبي الحسن الأشعري.

من معالم الدرس العقدي الأشعري المغربي الالتزام قدر المستطاع بأقوال مؤسس المذهب أبي الحسن الأشعري، والانتصار لاختياراته.

ولذلك نجد بعض مُصنّفات المشاركة لا تعرض لمؤسس المذهب إلا قليلاً، بل إنَّ بعض المتأخرين من الأشاعرة خالفوا مؤسس المذهب في كثير من القضايا، ولم يلتزموا منهجه وطريقته، وأسَّسوا لأنفسهم مناهج.

بينما حاول المغاربة عبر التاريخ ومنذ القرن الخامس الانتصار لأقوال مؤسس المذهب أبي الحسن الأشعري والالتزام بها، وهناك أمثلة كثيرة على هذا من كتاب: «التسديد في شرح التمهيد» للإمام المتكلم أبي القاسم عبد الجليل الديباجي¹⁷، ويكفي أن ننظر في كتب المغاربة في علم الكلام الأشعري فإنك ستجدهم غالبا ما ينتصرون لأقوال الإمام أبي الحسن¹⁸.

وهذا ما يفسر اختيار المغاربة للمنهج الأشعري؛ لأن المغاربة اختاروه عن قناعة وقصد، وعلم به وبأصوله وبمنهجه، فلم يكن دخول المذهب الأشعري للمغرب عبثاً أو صدفة، أو إلزاماً، وإنما كان اختياراً مبنياً على أسس وقواعد، حتى صار ثابتاً من ثوابت المغاربة بجانب المذهب المالكي والتصوف الجنيدي وإمارة المؤمنين.

وإذا بحثنا في معالم المنهج الأشعري وأسباب اختيار المغاربة، وجدنا أن اختيارهم كان مؤسساً على هذه الخصائص والمعالم التي تميز بها المنهج الأشعري عموماً، -وما أضاف له علماء المغرب من خصوصية..- هكذا حافظ المغاربة على هذا الفكر السني السلفي التوفيقي المعتدل، دون مبالغة في الخوض العقدي، ودون تعمق في تأويل الصفات، ولكنهم في الوقت نفسه لا ينكرون وظيفة العقل ولا يرفضون الأدلة السليمة المقنعة.

17 - مما يدل على ذلك حضور الاستدلال بأقوال الشيخ أبي الحسن كثيراً والانتصار له فيما خالف فيه الباقلاني إمام المذهب، فقد قمت بإحصاء عدد مرات استدلال الديباجي بأقوال أبي الحسن نحو: 36 تصريحاً، أما تلميحا فذلك كثير لا يمكن عدّه وحصره..

18 - انظر على سبيل المثال: المتوسط لابن العربي، نكت الإرشاد لابن المرأة، المباحث العقلية لليفرني.... الخ.

المتكلم المغربي وبراعته في قراءة العبرية وشرحها وتفسيرها:

مما يجِبُ التوقُّفُ عنده ونحن نتحدَّثُ عن علم الكلام الأشعري المغربي أن المتكلم المغربي تميز بعلم واسع واطلاع كبير بكتب اليهود والنصارى الذين عاصروهم في بيئة واحدة، وقد كانت المحاوراة انطلاقاً مما نحن فيه.

ونأتي بمثال يدل على ما قلنا وهو الإمام عبد الجليل الديباجي الذي حاور اليهود في كتاب «التسديد في شرح التمهيد» وقرأ التَّوراة كاملةً بالعبرية، فقد كان عارفاً بها، وعمل على تَرْجَمَةِ نُصُوصِهَا؛ فقد أفادنا بترجمة نصوص بالعبرية إلى العربية، قرأ ذلك على شيخه المتكلم المغربي أبي عبد الله الأذري¹⁹. يقول الإمام الديباجي في «باب النَّصارَى»: «لأنَّ كُلَّ كتاب تُقَرَّبُ به اليهودُ وتقرأه، تُقَرَّبُ به النَّصارَى وتقرأه، من ذلك أنَّ في التوراة: «واشموعيل شمعتنحوا هتى يبراختى أبو وهن يتلي ايوثق وهرقشى أوثو بمؤذ مؤوذ شنثم عاسار بوليد وانشنى دو لغوى كوذول».

تفسيره: «اسماعيل سمعت دعاك فيه أعظم اياك بمحمد، محمد يولد له اثنا عشر شريفاً، يولد له، وأجعله لحزب عظيم»²⁰.

وفي سفر آخر: «رَبُّو مانْ أذوناي مسينائنو يو زوراح مسيعين لوموي وهوي منها رمورون وأوثو منزف موث يورش منمن نوءاشي روت لوموي» تفسيره: «جاء ربكم من ناحية طور سيناء، وأضاء الموضع الذي ولدت المسيح جبال فاران²¹ مكة من ربوات قدس البقية شريعة لهم».

تفسير ذلك أيضاً: «جاء ربكم من ناحية طور سيناء وأضاء من ساعير؛ - وهو جبل بالشام - ولد فيه المسيح، وظهر من جبال فاران مكة، ومنها بعث النبي صلى الله عليه وسلم»²².

وقد صرح أيضاً بأنه قرأ التَّوراة، يقول في آخر باب إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم: «ولقد قرأت التوراة فرايت أن موسى توفي، ودفن في جبل كذا وكذا، ولا يدرك قبره إلى اليوم»²³.

19 - الحسين بن حاتم، أبو عبد الله الأذري، نسبة إلى أذربيجان، الأصولي المتكلم الأشعري الواعظ. المتوفى: (431-440هـ) صاحب الإمام الباقلاني ثلاث عشرة سنة، وأخذ عنه علم الأصلين، وعنه أخذ الديباجي.. وصحب شيوخ أهل الرِّيِّ وطبرستان، وقرأ عليهم أصول الدين، ونقل هذه العلوم إلى القيروان، ومن القيروان نقلها الإمام عبد الجليل إلى المغرب الأقصى، التكملة لكتاب الصلة (3/ 276)، جذوة الاقتباس القسم الثاني (ص 387)، وكتاب العمر في المصنفات والمؤلفات التونسيين (1/ 391)، في الإضافات والاستدراكات.

20 - التسديد (1/ 291-292).

21 - فاران: من أسماء مكة أو جبال الحجاز، وهي كلمة عبرانية معربة وتعريبها المتجمل.

22 - التسديد في شرح التمهيد (1/ 292).

23 - التسديد؛ اللوحة (1/ 356).

وَصَرَّحَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّهُ قَرَأَ التَّوْرَةَ كُلَّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَقَالَ فِي بَابِ الْكَلَامِ عَلَى الْيَهُودِ: «وَقَدْ قَرَأْتُ فِي التَّوْرَةِ الَّتِي فِي أَيْدِيهِمْ، - وَالَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهَا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ، وَأَنَّهَا مَا بُدِّلَتْ وَلَا غُيِّرَتْ، - فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ذِكْرَ جَنَّةٍ وَلَا نَارٍ، وَلَا وَعْدٍ بِالْآخِرَةِ، وَلَا وَعِيدٍ...»²⁴. وهناك نصوص كثيرة تدل على ما ذكرناه، يرجع إليها في «التَّسْديد».

كما ناقش الإمام الديباجي أرباب الديانات الأخرى من البراهمة، والمجوس، والمنجمين، أهل الطبائع، فقد كان على اطلاع كبير بمقالات غير المسلمين، الذين ناقشهم في «التَّسْديد» بما تقتضيه الحجة والبرهان؛ وأحال إلى كتاب له بعنوان: «المغني» وهو كتاب من المطولات في الملل والنحل، ذكر أنه ناقشهم فيه باستفاضة، وذكر الأدلة على شبهم، والطعون عليهم.

إن القصد مما ذكرناه إبراز مكانة المتكلم المغربي، وحضوره في خدمة العقيدة الأشعرية.

خاتمة

حين اختار المغاربة المنهج العقدي الأشعري، اختاروه عن قناعة وبُعد ونظر، وكان قصدهم تحصين العقيدة الإسلامية.

فواجبنا اليوم تجاه ديننا ووطننا أن نحافظ على هذا الاختيار الأشعري، وأن نقر به للناس ونبسطة، وأن نتمثله في حياتنا اليومية قولا وفعلا وعملا وسلوكا، وعلينا أن نربي أبنائنا وبناتنا ومجتمعنا على هذا الثابت وأن نعزز عليه بالنواجد، فلا شك أن لهذا الاختيار أثرا في ضمان وحدتنا وعزتنا وكرامتنا وأمننا، وفي نشر القيم الإنسانية والإسلامية.

ونحن بذلك نحقق مقصود الشرع الذي حثنا على الوحدة والتمسك بها ونهانا عن التفرقة، «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا»²⁵، ونحن بذلك أيضا نتمثل ونهتدي ونقتدي بحديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتي»²⁶.

وأسجل في الأخير ما يلي:

1 - استطاع المتكلمون المغاربة أن يؤسسوا مدرسة أشعرية مغربية لها معالم وخصائص وسمات خاصة بها.

24 - التَّسْديد (1/ 356).

25 - سورة آل عمران، الآية (103).

26 - المستدرك للحاكم، حديث رقم: (319).

2 - الدّرس العقدي الأشعري له دَوْرٌ مهم في تشكيل الشخصية المغربية وترسيخ قيم الوسطية والاعتدال.

3 - إسهام العلماء المغاربة في ترسيخ مجموعة من القيم الإنسانية التي تجمع ولا تفرق وتبني ولا تهدم.

4 - هناك نماذج مشرقة في تاريخ أمتنا كان لها دور بارز في ترسيخ قيم الوسطية والتسامح من خلال منهجها الإصلاحية، منهم الإمام عبد الجليل الديباجي، وابن أبي زيد القيرواني، وغيرهما.

لائحة المصادر والمراجع

1 - الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق: د. فوقية حسين محمود، الناشر: دار الأنصار - القاهرة، الطبعة الأولى، 1397 هـ. / وبتحقيق: طبعة دار المعارف.

2 - أبكار الأفكار، لسيف الدين الأمدي، تحقيق: أحمد محمد المهدي، دار الكتب والوثائق القومية المصرية، الطبعة الثانية / 1424 هـ - 2004 م.

3 - الإرشاد، للجويني؛ مؤسسة الكتب الثقافية، تحقيق أسعد تميم، ط. الأولى، 1985 م.

4 - أصول الدين، لعبد القاهر البغدادي؛ طبعة: دار الافاق الجديدة. ط. الأولى، 1981 م.

5 - الإنصاف، للباقلاني؛ طبعة: عالم الكتب، ت: حيدر، ط. 1، 1986 م.

6 - تبين كذب المفترى، لابن عساكر، ط: دار الكتاب العربي ط. الثالثة، 1404 هـ.

7 - التسديد في شرح التمهيد، للإمام عبد الجليل الديباجي، دراسة وتحقيق: رشيد عمور، الطبعة الأولى 1444 هـ / 2022 م، / مركز أبي الحسن الأشعري، الرابطة المحمدية للعلماء.

8 - تفسير ابن فورك، تحقيق: علال عبد القادر بندويش، الناشر: جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1430 هـ - 2009 م.

9 - تفسير السمرقندي. المسمى بحر العلوم، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، زكريا عبد المجيد النوتي؛ دار الكتب العلمية 1993 م.

10 - تفسير الطبري؛ تحقيق: عبد الله التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 1422 هـ - 2001 م.

11 - تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل؛ المحقق: عماد الدين أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - لبنان، الطبعة الأولى، 1407 هـ - 1987 م.

12 - حاشية البيجوري على شرح جوهرة التوحيد. دار السلام الطبعة الأولى 2002 م.

- 13 - حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد بن مكرم العدوي (المتوفى: 1189هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر - بيروت، تاريخ النشر: 1414هـ - 1994م.
- 14 - خصوصية إمارة المؤمنين ببلاد المغرب، محمد المنتار، جريدة منبر الرابطة، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، ع21، جمادى الأولى 1432هـ / 6 أبريل 2011م.
- 15 - جامع القرويين، عبد الهادي التازي. دار نشر المعرفة الرباط، الطبعة الثانية 2000م.
- 16 - الدرّة فيما يجب اعتقاده، ت: عبد الحق التركماني.
- 17 - الرائد في علم العقائد، للعربي اللوه. مطبعة الشويخ - تطوان 2012.
- 18 - الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، المكتبة الثقافية بيروت.
- 19 - الشّامل في أصول الدين للجويني؛ طبعة: منشأة المعارف سنة: 1969م.
- 20 - شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار المعتزلي، تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة القاهرة 1965.
- 21 - شرح السنوسية الكبرى؛ للإمام أبي عبد الله السنوسي. تحقيق أبو أحمد بلكرد بوكعبر؛ دار البصائر 2011م.
- 22 - شرح المواقف للجرجاني؛ تحقيق: عبد الرحمن عميرة، بيروت دار الجيل: 1997م.
- 23 - شرح زروق على متن الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، شهاب الدين أبو العباس، المعروف بـ زروق (المتوفى: 899هـ)، اعتنى به: أحمد فريد المزيدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1427هـ - 2006م.
- 24 - عقيدة أبي بكر المرادي الحضرمي؛ تحقيق: الدكتور جمال البختي، ط الرابطة المحمدية للعلماء الطبعة الأولى 1433هـ - 2012م.
- 25 - الفرق بين الفرق، لأبي منصور الإسفراييني البغدادي، الناشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة: الثانية، 1977م.
- 26 - الفصل لابن حزم؛ مكتبة الخانجي، القاهرة.
- 27 - الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، شهاب الدين النفراوي الأزهري المالكي، دار الفكر الطبعة: بدون طبعة، 1415هـ - 1995م.

- 28 - لمع الأدلة، للآمدي؛ تحقيق: فوقية حسين محمود، الناشر: عالم الكتب - لبنان، الطبعة الثانية، 1407هـ - 1987م.
- 29 - اللمع، لأبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، تحقيق محمد أمين الإسماعيلي، الناشر: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط. 2013م.
- 30 - لوامع الأنوار البهية، مؤسسة الخافقين الطبعة: الثانية - 1402 هـ - 1982م.
- 31 - المتوسط في الاعتقاد، لأبي بكر بن العربي المعافري، دار الحديث الكتانية، تحقيق: عبد الله التوراتي 2015م.
- 32 - مجرد مقالات أبي الحسن، لابن فورك. تحقيق: دانيال؛ دار المشرق، بيروت.
- 33 - المجموع في المحيط بالتكليف؛ للقاضي عبد الجبار المعتزلي، جمع بن متويه. تحقيق: جين يوسف هوين، دار الشرق، بيروت: 1962هـ - 1999م.
- 34 - المرشد المعين على الضروري من علوم الدين؛ مكتبة القاهرة، بدون تاريخ.
- 35 - المستدرک، للحاكم؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، 1411 هـ - 1990م.
- 36 - معاني القرآن، للنحاس. تحقيق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى - مكة المكرمة الطبعة الأولى، 1409هـ.
- 37 - معاني القرآن وإعرابه، للزجاج؛ المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى 1408 هـ - 1988م.
- 38 - المغني، للقاضي عبد الجبار؛ تحقيق: د خضر محمد نبها. ط: دار الكتب العلمية، ط. الأولى 2012م/ وطبعة القاهرة 1961م.
- 39 - الملل والنحل، للشهرستاني؛ الناشر: مؤسسة الحلبي.
- 40 - المواقف للإيجي؛ تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، الناشر: دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، 1997م.
- 41 - نهاية الإقدام للشهرستاني؛ تحقيق: ألفريد جيوم؛ الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 1430 هـ - 2009م.

وسائل المعرفة ومَقصد تحصين العقيدة الإسلامية عند أشاعرة المغرب

• ذ. خالد زَهري

أستاذ التعليم العالي بكلية أصول الدين بتطوان

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد اقتفى علماء المغرب سُبُلًا عديدة لصيانة عقيدة أهل السنة والجماعة، وأبلوا البلاء الحَسَنَ في ترسيخ المذهب الأشعري في النفوس، باعتباره الممثل الحقيقي لأهل السنة والجماعة. وقد آثرنا في هذا البحث التنبيه على بعض أهم السُّبُل المعرفية في حفظ التوجُّه العقدي السني، مما يقرّر واقعية الأشاعرة في حفظ عقائد الناس، وهي المتمثلة في المستويات الآتية¹:

أولاً: الأسباب العلمية التي تقف وراء تأليف المتون العقدية.

ثانياً: تنزيل العقائد بضرب أمثلة من الواقع.

ثالثاً: استعمال الأزجال لتقريب العقائد.

رابعاً: النسخة.

خامساً: تقويم السنة العوام.

أولاً: الأسباب العلمية التي تقف وراء تأليف المتون العقدية

لم يكن تأليف المتون العقدية عند الأشاعرة عموماً، وأشاعرة المغرب خصوصاً، مجرد ترف فكري، أو تسويد للأوراق، تباها بغزارة التأليف، بل كان الداعي إليه تحصين الأمة عقدياً، ولهذا كانت في الغالب استجابة لطلب بعض الناس لأحد العلماء، ويمكن أن نمثل لذلك بـ:

1 - توجد مستويات أخرى، منهجية ومعرفية، تقف شاهدة على واقعية المذهب الأشعري، تكلمنا عليها في كتابنا «الفكر العقدي للمذهب الأشعري: خصائصه ومقاصده»، منشورات المجلس العلمي المحلي لعمالة المضيق - الفنيدق، مطبعة جريدة طنجة، طنجة، ط. 1، 1444/ 2022، ص. 144 - 151.

1 - «العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية» لأبي عمرو عثمان بن عبد الله السلاجي الفاسي (ت. 574 هـ / 1178 م): التي ألّفها لامرأة أندلسية زاهدة فقيهة، اسمها خيرونة²، فكانت ترتاده ليملي عليها فقرة في علم الاعتقاد، فتحفظها، وتستوعبها، إلى أن أتم إملاء المتن عليها بكل المباحث الكلامية وأهم المضامين العقديّة.

2 - «صغرى الصغرى» لأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي التلمساني (ت. 895 هـ / 1489 م): اختصر فيها عقيدته «الصغرى» الموسومة بـ «أم البراهين» بناء على طلب أحد تلاميذه، وهو والد تلميذه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عمر الماللي التلمساني (ت. نحو 897 هـ / 1492 م)، وذلك أنه استصعب «أم البراهين»، حفظا وفهما، فاختصرها له السنوسي ليتيسر له استيعاب مضامينها³.

3 - «العقيدة الحفيدة» (= «صغرى صغرى الصغرى») للسنوسي أيضا: لخص فيها عقيدته «صغرى الصغرى»، وضعها للنساء وضعفاء الحفظ⁴.

4 - «المفيدة للولدان والنساء المؤمنات»⁵ للسنوسي أيضا: ولا شك أن مفردات العنوان واضحة في الدلالة على المقصود من تأليفها، وعلى الجهة المستهدفة، وينسجم مع ما قررناه أعلاه.

ثانيا: تنزيل العقائد بضرب أمثلة من الواقع

مما عوّّل عليه علماء المغرب في تقريب العقائد السنية إلى الناس: الاستفادة من أي مناسبة واقعية تُذكر بهذه العقائد، مما يُعدّ معلّما من معالم المنهج التجريبي (الواقعي) في التعليم والتلقين، وفي تحصين العقيدة

2 - سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس لأبي عبد الله محمد بن جعفر الكتاني، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحزمة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة - مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 2004، ج. 2، ص. 205، النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله غنون، دار الثقافة، 1380 / 1960، ج. 1، ص. 150، عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية: دراسة لجانب من الفكر الكلامي بالمغرب من خلال «البرهانية» و«شروحه»، لجمال علّال البختي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالملكة المغربية - دار أبي رقرق، الرباط، ط. 1، 1426 / 2005، ص. 170 - 171، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ليوسف احناة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالملكة المغربية - دار أبي رقرق، الرباط، ط. 2، 2007، ص. 297 - 298.

3 - قال محمد بن إبراهيم الماللي في كتابه «المواهب القدوسية في المناقب السنوسية»: «وقد كان [السنوسي] وضعها [صغرى الصغرى] لوالدي - حفظه الله تعالى من كل آفة وبلية وأناله الدرجة العلية - وذلك أن والدي لما قرأ على الشيخ رضي الله عنه عقيدته «الصغرى»، وختمها عليه بالتفسير غير ما مرة، رأى أنه قد ثقل عليه درسها وحفظها، لكبره وكثرة همومه، فطلب من الشيخ رضي الله عنه أن يجعل له عقيدة أصغر من «الصغرى» بحيث يمكنه درسها وحفظها، فعمل له هذه العقيدة، وكتبها له بخط يده» (منقول من مقدمة نزار حمادي على تحقيقه لـ «شرح المقدمات» لمحمد بن يوسف السنوسي، مؤسسة المعارف، بيروت، ط. 1، 1430 / 2009، ص. 17).

4 - انظر هذه العقيدة في: «ثلاث عقائد أشعرية» لأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الحسني، تحقيق خالد زهري، سلسلة «ذخائر من التراث الأشعري المغربي (2)»، مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقديّة، تطوان - الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، ط. 1، 1434 / 2013، ص. 127 - 136، «تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي»، (ص. 333 - 334، مقدمة تحقيق نزار حمادي لـ «التحفة المفيدة في شرح العقيدة الحفيدة» لأبي مهدي عيسى بن عبد الرحمن السُّكَّاتاني (2012)، ص. 20 - 21، ص. 145 - 146). وانظر وصف نُسخها المخطوطة المحفوظة في «الخزانة الحسنية» في «فهرس الكتب المخطوطة في العقيدة الأشعرية»، منشورات الخزانة الحسنية بالرباط - دار أبي رقرق، الرباط، ط. 1، 1432 / 2011، ج. 2، ص. 710 - 714.

5 - المفيدة للولدان والنساء المؤمنات، منشورة ضمن «ثلاث عقائد أشعرية»، ص. 137 - 140.

الإسلامية، من قبيل ما صنَّعه أبو محمد عبد الله بن محمد الهبطي الطنجي (ت. 963 هـ / 1555م)، في تقرير العقائد للعامة المغمورين بجمال غمارة (شمال المغرب الأقصى)، فيما رواه عنه تلميذه أبو العباس أحمد بن الحسن ابن عرضون الشفشاوني (992 هـ / 1584 م): «سمعتَه رضي الله عنه يقول: كنت ذات مرة ببني محمد من قبيلة بني زجل، أقرر لهم الاعتقادات، وأمرهم بالمعروف، فأردت إخراجهم من عهدة التقليد في الصفات الخمس، التي تتوقف عليها دلالة المعجزة، وهي: الوجود، والحياة، والقدرة، والإرادة، والعلم، فأخذت سَطْلَةً كنت أتوضأ فيها، وقلت لهم: يا معشر الأصحاب، إن قلت لكم كلمة، هل تصدقوني فيها؟ فقالوا: يا سيدي، كيف نتهمك بالكذب، وأنت سيدنا وبركتنا؟! فقلت لهم: هذه السطلة؛ التي بيدي؛ لم يصنعها صانع، بل صُنِعَتْ وحدها! فقالوا: يا سيدي، هذا شيء لا يكون، لا بد للصنعة من صانع! فقلت لهم: نعم، لا شك أنه صنعها معلَّم، غير أنه صنعها وهو ميت! فقالوا: هذا شيء لا يكون! لا بد من حياته، فقلت: لا شك أنه حي، غير أنه مريض عاجز عن العمل! فقالوا: هذا شيء لا يكون! لا بد من صحته وقدرته. فقلت: نعم، غير أنه لم يقصد أن تكون سطلة، ولا أراد صنعها هكذا، بل كان يضرب فيها فقط. فقالوا: هذا شيء لا يكون! لا بد أن يكون قصد أن يعملها على ما هي عليه من الأوصاف. فقلت: لا شك أنه قصد ذلك، غير أنه لم يكن عنده علم، بل جاهل بها وبصنعتها. فقالوا: هذا شيء لا يكون! لا يمكن أن يصنعها مَنْ هو جاهل أصلاً. فقلت لهم: هذا الذي قلتم، كله لا بد أن تشرطوه في الصانع على الإطلاق! فقالوا: نعم، لا بد أن يكون الصانع كما ذكرنا. فقلت لهم: فانظروا؛ إذن؛ في هذه الموجودات، من الأرضين، والسموات، والشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، والمطر، والرعد، والبرق، والجبال، والبحار، والعيون الجارية، والأنهار، وسائر الحيوانات، والنبات، والثمار، وتبدل الفصول، من الربيع، والمصيف، والشتاء، والخريف، وغير ذلك من تقلب الأحوال والأزمان، وسائر التغيرات، من العدم إلى الوجود، ومن الوجود إلى العدم، أيمن أن يكون شيء من ذلك من غير صانع؟ فلما تأملوا ما قلت لهم، قالوا: يا سيدي، لا بد من صانع لهذه الموجودات، ومن مخترع اخترعها. ثم أقروا، وقطعوا قطعاً كلياً بالصفات الخمس المذكورة، وهي: الوجود، والحياة، والقدرة، والإرادة، والعلم»⁶.

ثالثاً: استعمال الأزجال لتقريب العقائد

نمثل لذلك بقصيدة زجلية لامية في «علم التوحيد»، نظمها عبد الله بن محمد الهبطي، بلهجة مغربية متفصحة، يسر بها القضايا العقدية والكلامية، التي عالجها في رسائله المنشورة. تتكوّن من عشرة

6 - مُقْنَعُ المحتاج في آداب الأزواج لأبي العباس أحمد بن الحسن ابن عرضون الشفشاوني، تحقيق عبد السلام الزياني، مركز الإمام الثعالبي للدراسات ونشر التراث، الجزائر - دار ابن حزم، بيروت، ط. 1، 1430 / 2010، ج. 2، ص. 792 - 793، وانظر أيضاً «الفكر العقدي للمذهب الأشعري»، ص. 146 - 147.

أبيات ومائة بيت (110)، أَمَاط فيها اللثام عَمَّا يَجِبُ، وما يستحيل، وما يجوز، في حق الله سبحانه، وفي حق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام⁷، وهذا أولها:

أعوذ برب الناس	من نزعة الوسواس
يلقي في قلوب الناس	ما لا يرضاه العَل
نستفتح باسم الله	وبالنبى المرسل
لا إله إلا الله	القديم الأزل
بسم الله قل أبتدي	وبالمنزل أهتدي
وبالرسول أقتدي	وإن جهلت سل
اعلم وافهم يا لبيب	أن الحكم يا صَحِيبُ
ينحصر في الوجيب	والجائز والمحل
فالواجب هو الله	والجائز خلق الله
والمحال لا تنساه	لا يتصور في البَل

فقد قَرَّبَ - في هذه الأبيات التي نقلناها - مبحث «الحكم العقلي» بأقسامه الثلاثة (الواجب، والمستحيل، والجائز)، وعَرَّفَ هذه الأقسام بالدرجة المغربية، بما يجعله بَيِّنًا لا يستعصي على الفهم، ثم بنى عليه - في سائر الأبيات - بالأسلوب نفسه كل القضايا العقدية المندرجة تحت المباحث المكوِّنة لعلم أصول الدين، وهي: «الإلهيات»، و«النبوات»، و«السمعيات».

وعلى هذا المنوال، صاغ بعض شعراء الملحنون قصائد جميلة جدا، ذات مقصد تعليمي، تُسَهِّلُ في ترسيخ العقائد التوحيدية لدى العوام، ويمكن أن نمثل لها بالنماذج الآتية:

1 - هول القيامة: لعبد العزيز المغراوي الفاسي (كان حيا عام 1022 هـ / 1613 م)، وهي عبارة عن قصيدة زجلية، عدد أبياتها: 240 بيتا، وهذا مطلعها:

باسم الله العظيم نُبْدَا في الاسْطَارْ
 يهديني لَمَنَاهَجِ الْقَوَامِ
 رَبِّي قَدَّرْ وَصَرَفَ الْأَوْقَاتِ وَالْأَعْمَارِ
 مَنْ لَا يَسْهَى وَلَا يَنَامِ

7 - سُنُّشَرُ قَرِيبَا بَعْنَايْتِنَا فِي مَجْلَةٍ مُحْكَمَةٍ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ.

نَعْمَ الْقَيُّومُ خَالِقُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ

في انهار البعث والقيام⁸.

2 - الفياشية، ليحيى الشرقي، المعروف بـ «سيدي بهلول» (ق. 13 هـ / 19 م)⁹: وهي «قصيدة شعبية مشتملة على توحيد الخالق وحكم ونصائح ثمينة»¹⁰.

تتضمن هذه القصيدة الملحونة الرائعة والدائعة الصيت عقائد التوحيد، مع التركيز على القدر والكسب. نظمها صاحبها بالعربية الفصحى وبالملاحون، أي أنها جمعت بين المعرب والملاحون، ابتدأها ناظمها بيتين من بحر المتقارب، ثم أتبعها بيتين من الملاحون، ثم الحربة، وهي:

أنا مالي فيّاش

آش علي مني

نقنط من رزقي لاش

والخالق يرزقني¹¹.

3 - قصيدة الهَيْلَالَة، لمحمد بن علي المسفيوي (ت. 1353 هـ / 1934 م): قصيدة أخرى من روائع فن الملاحون، عدد أبياتها: 65 بيتا، وهذا أولها، مع الإشارة إلى أن البيت الثامن هو الحربة:

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سَابِقًا فَلَنَشَادُ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سَاسُ كُلِّ نَاشِدٍ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سَرَهَا فَلَوْرَادُ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَيْلُ كُلِّ وَارِدٍ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَلَسُونُ تَزْدَادُ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَيْرَهَا امْرَأِيدُ

8 - معلمة الملاحون: تراجم شعراء الملاحون، لمحمد الفاسي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة «التراث»، 1992، ج. 2، ق. 2، ص. 264، المصادر المغربية للعقيدة الأشعرية: بيبليوغرافيا ودراسة بيبليومترية، لخالد زهري، منشورات الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية، تطوان، ط. 1، 1438 / 2017، ج. 1، ص. 404.

9 - اختُلف في نسبة «الفياشية»، فالمشهور أن ناظمها هو سيدي بهلول، وهناك من ينسبها إلى أبي البقاء عبد الوارث الياصوتي (ت. 1076 هـ / 1665 م)، وقيل: هي لأبي عبيد الله محمد الشرقي (ت. 1010 هـ / 1601 م).

10 - المطبوعات الحجرية في المغرب: فهرس مع مقدمة تاريخية، لفوزي عبد الرزاق، دار المعرفة - مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1989، ص. 109.

11 - المصادر المغربية للعقيدة الأشعرية، ج. 2، ص. 661 - 663.

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ جُلُّ كُلِّ مُرَادٍ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَتَرُ كُلِّ قَاصِدٍ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيُضْهِهَا بِلَمْدَادٍ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَهَجُ كُلِّ رَاشِدٍ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَاتَحَلْ لَكَيَادٍ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سَلُو كُلِّ نَاكِدٍ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُلْهَا فَلَعْدَادٍ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بَلْمِيَا تُعَاوَدٍ
الصَّلَى وَالسَّلَامُ عَلَى شَفِيعِ لِعِبَادٍ
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ كَهْفُ الثَّنَى الْمَاجِدِ¹².

رابعاً: النسخة

يتجلى هذا المسلك في معلّمين على الأقل:

المعلم الأول: الاجتهاد بتكثير النسخ وتوسيع مدى النسخة، من أجل أن تكثر المتون العقدية السنية بين الناس، وتتسع لتشمل أغلب فئات المجتمع. ومن المتون السنية الأشعرية، التي تميزت بهذه الخصيصة، عقيدة «أم البراهين» للسنوسي¹³، حيث بلغ عدد النسخ المدرجة تحتها أربعين نسخة في الخزانة الحسنية بالرباط وحدها¹⁴، وبلغت نسخ شرح مؤلفها عليها خمسين نسخة في الخزانة نفسها¹⁵، وبلغت نسخ تلميذ السنوسي أبي عبد الله محمد بن عمر بن إبراهيم الملاي التلمساني (كان حيا عام 897 هـ / 1492 م)، على المتن نفسه في الخزانة نفسها أربعين نسخة تقريبا¹⁶. وبلغت نسخ شرح أبي عبد الله محمد المامون بن

12- المصادر المغربية للعقيدة الأشعرية، ج. 2، ص. 728 - 729.

13- الهوية السنية الأشعرية في المغرب: كفاح البقاء وشراسة المهاجم، لخالد زهري، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط. 1، 1443 / 2022، ص. 20 - 21.

14 - انظر وصف هذه النسخ في «فهرس الكتب المخطوطة في العقيدة الأشعرية»، ج. 1، ص. 100 - 114، وانظر أيضا: «الكتاب العربي المخطوط وآفاق معرفة جديدة: دراسات في الوعاء والنص»، لخالد زهري، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، ط. 1، 2020، ج. 1، ص. 79، «كتب الكلام والفلسفة المخطوطة: مقارنة كوديكولوجية»، لخالد زهري، مركز نبوغ للدراسات والأبحاث، طنجة - دار ركاز، إربد (الأردن)، ط. 1، 2022، ص. 131.

15 - انظر وصف هذه النسخ في «فهرس الكتب المخطوطة في العقيدة الأشعرية»، ج. 2، ص. 580 - 603، وانظر أيضا: «الكتاب العربي المخطوط»، ج. 1، ص. 79، «كتب الكلام والفلسفة المخطوطة»، ص. 131.

16 - انظر وصف هذه النسخ في «فهرس الكتب المخطوطة في العقيدة الأشعرية»، ج. 2، ص. 603 - 618، وانظر أيضا: «الكتاب العربي المخطوط»، ج. 1، ص. 80، «كتب الكلام والفلسفة المخطوطة»، ص. 132.

محمد الحفصي المراكشي (ت. 1037 هـ / 1628 م) على «صغرى السنوسي» ثلاثين نسخة تقريبا في الخزانة المذكورة¹⁷، وكذلك القول في سائر خزائن حفظ المخطوطات في المغرب.

المعلم الثاني: معلوم أن «الخط المغربي المبسوط»، كان «يوجد في المصاحف القديمة، وبه طُبعت المصاحف المغربية الشريفة في المطابع الحجرية»¹⁸. والمقصد الأساس من استعماله، هو تيسير حفظ كتاب الله، إنه يحوّل الكلمة إلى صورة، مما يجعلها مرسّخة في الذهن، ثابتة فيه. ولا يخفى ما في ذلك من دلالة واضحة على عناية المغاربة بكتاب الله حفظا ونساخته، واقتفاء طرق فنية في تحقيق هذا المقصد النبيل.

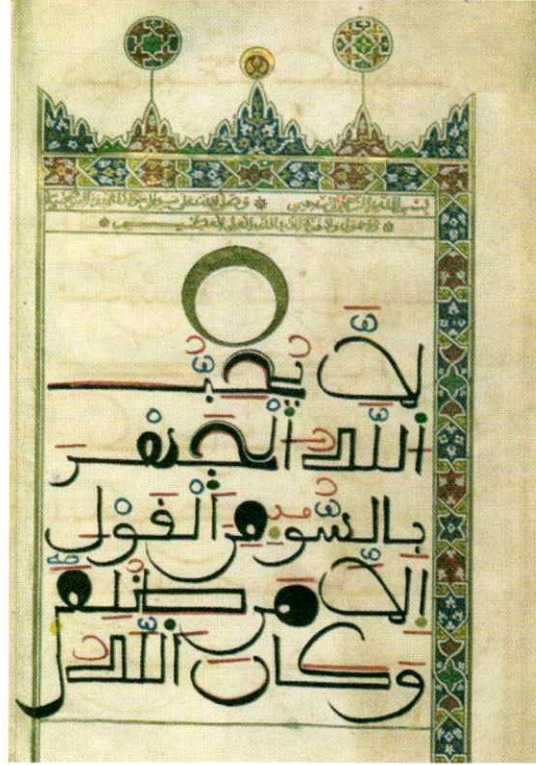
ومن الأمثلة على استعمال الخط المغربي المبسوط في تحقيق مقاصد عقديّة:

1 - المصحف الشريف: من المصاحف المغربية الجميلة، المنسوخة بالخط المغربي المبسوط، النسخة التي كتبها العالم الصوفي المغربي أبو عبد الله محمد بن قاسم القندوسي (ت. 1278 هـ / 1861 م)، المحفوظة في الخزانة الحسينية تحت رقم «12613»، وهي مكوّنة من اثني عشر سِفْراً. والمميّز في هذه النسخة الجميلة والرائعة، أن التقنية التي استعملت في كتابة كلماتها، حضرت فيها مقاصد عقديّة تُذكر الناظر فيها، من خلال فلسفة الصورة التي تقف وراءها، بمضامين عقديّة إسلامية. وسنصطفي منها مثالا خادما لـ «مبحث الإلهيات»، ومثالا له صلة بـ «مبحث النبوات»:

أ - مثال من مبحث الإلهيات: يُرسم اسم الجلالة «الله» في شكل مسجد، ولا يخفى ما في ذلك من تأثير على المستويين العقدي والسلوكي لدى المسلم، إذ يصير اسم الجلالة المرسوم بالخط المغربي المبسوط مذكرا لقارئ كتاب الله بالمسجد، ويصير المسجد مذكرا لمن يرتاده بالله تعالى، وهذا مثال منه عند كتابة قوله تعالى: ﴿لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 147]، ولتأمل اسم الجلالة في السطرين الثاني والخامس في الصورة أسفله، مع تخصيص السطر الأخير بتكبير الحجم، لتظهر الفكرة أجلى للناظر:

17 - انظر وصف هذه النسخ في «فهرس الكتب المخطوطة في العقيدة الأشعرية»، ج. 2، ص. 628 - 642، وانظر أيضا: «الكتاب العربي المخطوط»، ج. 1، ص. 80، «كتب الكلام والفلسفة المخطوطة»، ص. 132.

18 - تاريخ الوراقة المغربية: صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، لمحمد بن عبد الهادي المنوني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 2 - مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 1412 / 1991، ص. 47.



ب - مثال من مبحث النبوات: رسم حرف الحاء في اسم نبي الله «نوح» في شكل سفينة، فيكون هذا الشكل مذكراً للناظر فيه بسفينة نوح، التي كانت مظهرًا لانتصار كلمة التوحيد على كلمة الكفر، وإعلاناً بأن الله سبحانه وتعالى ينصر مَنْ يوحدّه وينتصر لدينه. وهناك ملاحظة أخرى تثير انتباهنا في الشكل السفيني الذي رَسَمَ به القندوسي حرفَ الحاء في كلمة «نوح»: أنه أدخل عبارة «والنبيين» في وسطها، إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ينصر كل أنبيائه كما نصر نوحاً. فلتأمل قوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ [النساء: 162]، كما هو مرسوم في الصورتين الآتيتين:



2 - كتاب دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار، لأبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي السملالي (ت. 870 هـ / 1465 م): يُعدُّ هذا الكتاب من أهم المؤلفات في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أكثرها انتشارا في العالم الإسلامي عامة، والمغرب خاصة، ولهذا وصفه حاجي خليفة بقوله «وهذا الكتاب آية من آيات الله في الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، يواظب بقراءته في المشارق والمغارب»¹⁹. وقد اشترك في التعلق به كل المغاربة، سواء منهم السلاطين، أو الأمراء، أو الوزراء، أو العلماء، أو العوام. وعلاوة على كونه كتابا في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأصالة، فإنه يشتمل على مضامين عقدية سُنيّة أشعرية سبق أن بسطناها في بحوث سابقة²⁰.

19 - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة مصطفى بن عبد الله، تصحيح وتعليق محمد شرف الدين يالتقيا، ورفعت بيلكه الكليسي، وكالة المعارف، استنبول، 1362 / 1943، ج. 1، ص. 759.

20 - انظر تفصيل الكلام على المضامين العقدية السنية الأشعرية في «دلائل الخيرات» في هذه المؤلفات: «من علم الكلام إلى فقه الكلام: مقارنة لإبراز معالم التجديد الكلامي عند فقهاء وصوفية المغرب»، لخالد زهري، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء - دار الضياء، الكويت، ط. 1، 1438 / 2017، ص. 569 - 595، مقدمة تحقيق «عقيدة الجزولي» لأبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي السملالي، تحقيق خالد زهري، دار الضياء، الكويت، ط. 1، 1435 / 2014، ص. 24 - 47، «الفكر العقدي للمذهب الأشعري»، ص. 206 - 209.

وحيث إن هذا الكتاب كان يُحفظ في الصدور عند المغاربة، ويدأومون على قراءته يوميا، فإنه لم يكن في مَعَزَل عن المتون التي كُتِبَتْ بالخط المغربي المبسوط، لتيسير حفظها وترسيخها في القلوب والأذهان²¹، ونصطفي للتمثيل لذلك النسخة المخطوطة، المحفوظة في خزانة جامع ابن يوسف بمراكش، المسجلة تحت رقم «377»، وهي مكوّنة من سِفْرَيْن²²، والصورتان أسفله: أولاهما مأخوذة من أول السفر الأول، وثانيهما مأخوذة من آخر السفر الثاني:



3 - أم البراهين لأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي التلمساني (ت. 895 هـ / 1490 م): يُعَدُّ هذا المتنُ العقدي السني الأشعري أهمَّ المتون التعليمية في تلقين عقيدة أهل السنة الأشاعرة، وقد كثر الإقبال عليه، وكان يحفظه الصغار والكبار، ويُتداول حفظا ودرسا وشرحا في المساجد والزوايا والمدارس والمعاهد

21 - ما يدل على تعلق المغاربة الشديد بهذا الكتاب كثرة نسخه المخطوطة المحفوظة في الخزائن المغربية، بحيث تُعَدُّ في الخزانة الواحدة بالعشرات. فالخزانة الحسنية؛ مثلا؛ تحتوي بمفردها على خمسين نسخة مخطوطة منه تقريبا (كشاف الكتب المخطوطة بالخزانة الحسنية، لعمر عمور، منشورات الخزانة الحسنية، الرباط - المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط. 1، 1428 / 2007، ص. 180، فهرس مخطوطات التصوف، منشورات الخزانة الحسنية، الرباط - المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط. 1، 2010، ج. 1، ص. 332 - 344).

22 - وهي مكتوبة بخط الشيخ أبي عبد الله محمد الصغير السهلي تلميذ محمد بن سليمان الجزولي.

وغيرها، ودارت حوله الشروح والتحشيات والتعليقات والتقييدات دورانا لم نشهده في أي متن عقدي آخر أو نكاد، وأخذ الناس بمختلف طرق التحمل، وخاصة طريق الإجازة²³. وبسبب ذلك، فإن نُسخَ هذا المتن العقدي المخطوطة، المكتوبة بالخط المغربي المبسوط، لا يضبطها قانون العدِّ والحصَر، ولا تخلو منها خزانة مغربية من خزائن حفظ المخطوطات، ونصطفي منها النسخة المحفوظة في الخزانة الحسنية، المسجلة تحت رقم «7219»، ضمن مجموع من الورقة 1 ب إلى 16 أ، وهذه صورة من أولها:

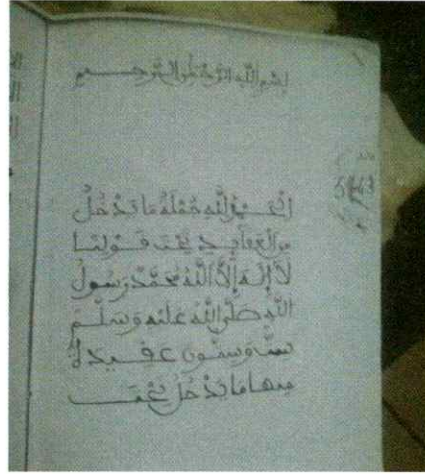


4 - العقيدة المرشدة لأبي عبد الله محمد المهدي بن تومرت الموحدي (ت. 524 هـ / 1129 م): وهي أيضا من المتون العقدية السنية الأشعرية، التي كانت تحفظ عن ظهر قلب، وكتبت نسخها بالخط المغربي المبسوط، ونمثل لذلك بالنسخة المخطوطة المحفوظة بالخزانة الحسنية، المسجلة تحت رقم «13436»، ضمن مجموع من الورقة 240 أ إلى 243 ب، وهذه صورة من أولها:



23 - انظر تفصيل الكلام على ذلك في «الفصل الأول: منزلة كتب العقيدة عند المغاربة: صغرى السنوسي أنموذجا» من كتابنا «الهوية السنية الأشعرية في المغرب»، ص. 10 - 22.

5 - تقييد في العقائد الستة والستين لمؤلف مغربي غير معروف: وهو متن عقدي أشعري تعليمي، مُعَدَّ للحفظ، ويشتمل على أهم العقائد السنية، التي جمعها الأشاعرة في ست وستين عقيدة، ونصطفي منه النسخة المخطوطة، المحفوظة في الخزانة الحسنية، المسجلة تحت رقم «5743»²⁴، وهذه صورة من أولها:



خامساً: تقويم السنة العوام

لا شك أن المذاهب غير السنية، التي تسربت إلى بلاد المغرب قديماً، تركت بعض آثارها على السنة العوام، وفي بعض عوائدهم وأمثالهم الشعبية، على الرغم من تصدي علماء المذهب الأشعري لهذه التيارات العقدية، خاصة بقايا عقائد المعتزلة، والخوارج، والمرجئة، والشيعة²⁵.

ومن أبرز الكتب التي أسهمت في ذلك: شرح محمد بن خليل السكوني الإشبيلي ثم القيرواني (ق. 7 هـ / 13 م) على منظومة «التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد» لأبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي السرقسطي المعروف بـ «الضرير» (ت. 520 هـ / 1126 م)، وكذا كتابه «أربعون مسألة في أصول الدين»²⁶.

إن عقائد العوام، قد شابهها كثير من أفكار ذوي هذه العقائد الغريبة، خاصة على مستوى الثقافة الشفوية، فقد انبرى محمد بن خليل السكوني لتصفيتها من بقايا هذه العقائد، وهو المشروع الذي ضمَّنه في

24 - انظر هذا المتن في الملحق الخامس من ملاحق «الفكر العقدي للمذهب الأشعري»، ص. 293 - 297.

25 - انظر تفصيل الكلام على هذه المسألة في: «تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي»، ص. 200 - 205.

26 - انظر؛ مثلاً؛ المسائل 10، 11، 12، من «أربعون مسألة في أصول الدين» لأبي عبد الله محمد بن خليل السكوني الإشبيلي، تحقيق يوسف احنانة، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية، تطوان، ط. 1، 1442 / 2021، ص. 80 - 82.

كتابه «أربعون مسألة في أصول الدين»، حيث حللها، وكشف عن ضلالها، بعبارات وجيزة، لكنها دالة، «ليجمع التنزيه والتعظيم، في الألفاظ القليلة»²⁷.

ومن العبارات الجارية على ألسنة العوام، ولم يسلم منها الخواص، في عصره، مما فيه مخالفة لعقائد أهل السنة:

«قضى الله، ولم يرض»²⁸.

«سبحان من لا يعلم ما هو، إلا هو»²⁹.

«سبحان من لم يزل موجودا، وسبحان من لم يزل معبودا»³⁰.

«سبحان من ليس هو في مكان، وليس يخلو منه مكان»³¹.

«يا من يرى، ولا يرى»³².

«لولا الدواء ما وُجد الشفاء»³³.

تَوَقَّف «الزرع على البذر»³⁴.

والحال، أن «ذلك كله توقَّف عقلي، أي: لولا هذا، ما وُجد هذا. وقد بطل السبب والواسطة، في حق الباري تعالى، إذ لا يفعل بالأسباب والوسائط، يتعالى عن ذلك. والمحقق يقول: توقف شيء على شيء، إنما هو بالعادة، وقد ينقض الله العادة، في وقت ما»³⁵، إلخ³⁶.

ومن سار على هذا المهيِّع ولده أبو علي عمر بن محمد بن خليل السكوني (ت. 717 هـ / 1317 م)، ومن أبرز ما صنَّفه في ذلك كتابه «لحن العوام فيما يتعلق بعلم الكلام»³⁷.

27 - شرح مرشدة محمد بن تومرت، لمحمد بن خليل السكوني الإشبيلي، تحقيق يوسف احنانة، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية، تطوان، ط. 1، 1442 / 2021، ص. 71.

28 - أربعون مسألة في أصول الدين، ص. 76.

29 - المصدر نفسه، ص. 78.

30 - المصدر نفسه، ص. 80.

31 - المصدر نفسه، ص. 81.

32 - المصدر نفسه، ص. 81.

33 - المصدر نفسه، الورقة 30 أ.

34 - المصدر نفسه، الورقة 30 أ.

35 - شرح التنبيه والإرشاد، الورقة 30 أ.

36 - انظر تفصيل الكلام على تقويم ألسنة العوام عند محمد بن خليل السكوني في «من علم الكلام إلى فقه الكلام»، ص. 484 - 558.

37 - انظر تفصيل الكلام على هذا الكتاب في «المصادر الأندلسية لعلم الكلام: المسار والتحوُّلات والخصائص»، لخالد زَهري، سلسلة «دراسات بليوغرافية (2)»، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية، تطوان، ط. 1، 1441 / 2020، ص. 429 - 431.

خاتمة

في ختام هذا البحث، نلخص أهم ما يُمكن استنتاجه في النقاط الآتية:

- 1 - من أهم ما يلاحظ في تأليف المتون العقدية الأشعرية: مراعاة مستويات المتلقين لدى الفئات المستهدفة. ولا يخفى ما في ذلك من ترسيخ للمذهب في النفوس، وتأسيسه على قواعد تعليمية متينة.
- 2 - اعتماد علماء المغرب في تعليم العقائد وصيانتها وتقريبها إلى كل الشرائح الاجتماعية على التجريب والحس.
- 3 - استثمار الثقافة الشعبية، كالأزجال وقصائد الملحون، في ترسيخ العقائد وصيانتها.
- 4 - أسهمت النسخة بالقسط الأوفر في صيانة عقائد أهل السنة بين المغاربة، وفي تيسير تداولها بين الناس.
- 5 - من أهم ما قام به علماء المغرب، طيلة المراحل التي ساد فيها المذهب الأشعري، تقويم ألسنة العوام، وذلك لتصحيح ما ساد بينهم من عبارات وأمثال تضمنت بعض آثار العقائد غير السنية.

التكامل والانسجام بين العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي

● ذ. عبد الرحيم الأمين

أستاذ التعليم العالي بكلية الحقوق، أكadal، بالرباط

الحمد لله رب العالمين الملك الحق المبين، وصلى الله على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحabته أجمعين، ومن تبع هداهم إلى يوم الدين.

وبعد، فقد عُرف المغاربة عبر تاريخهم المشرق بحبهم للدين الإسلامي الحنيف وتعلقهم به، وتثبيت أركانه والتزامهم بأحكامه وتحليل حلاله وتحريم حرامه، وبذلك شكل الحجر الأساس للهوية المغربية.

فإذا كان لكل أمة هويتها فإن الهوية الدينية للمغاربة تتمثل في اختياراتهم العقدية والمذهبية التي تلقوها بالقبول، فأصبحت ثوابت لهذه المملكة الشريفة، يتلقاها المغاربة في مساجدهم وزواياهم ومدارسهم وجامعاتهم، ويمارسون وفق أصولها وفروعها شعائرهم الدينية، ويحتكمون إليها في محاكمهم الشرعية، وبذلك غدت عنوانا لوحدة المغاربة وامتدادا للعلاقات الروحية والروابط الدينية التي تجمع المملكة بأشقائها في البلدان الإفريقية وكذا في البلدان الأوروبية.

هذه الثوابت تتجسد في جانبها العقدي في عقيدة أهل السنة والجماعة وفق منهج الإمام أبي الحسن الأشعري، وفي جانبها الفقهي في فقه المدينة وفق مذهب الإمام مالك بن أنس.

وباختيار هذين المذهبين العقدي والفقهي تميز النموذج المغربي في التدين بالتكامل والانسجام، وهذا ما نحاول رصده والوقوف عليه من خلال رصد أسباب التكامل والانسجام بين العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي، في مبحث أول، ثم بيان مظاهر هذا التكامل والانسجام بينهما في مبحث ثان، ثم آثار هذا التكامل والانسجام في مبحث ثالث.

المبحث الأول: أسباب التكامل والانسجام بين العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي

إن المتتبع لقضايا العقيدة الأشعرية ومسائل الفقه المالكي ليدرك بجلاء ما بين المذهبين من تكامل وانسجام، أسهمت فيه عوامل وأسباب موضوعية ومنهجية أذكر منها ثلاثة وهي:

أولاً: انتماؤهما معا إلى أهل السنة والجماعة

العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي ينتميان معا إلى أهل السنة والجماعة، إذ هذا الاصطلاح يحمل بعدا عقديا حين يأتي في سياق مقابلة أهل الاعتزال والخوارج وغيرهما من الفرق العقدية، كما يحمل بعدا فقهيّا حينما يأتي في سياق مقابلة المذاهب الفقهية الشيعية وغيرها من المذاهب الإسلامية التي خرجت عن أهل السنة، يقول تاج الدين السبكي رحمه الله: «وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة يد واحدة، كلهم على رأي أهل السنة والجماعة يدينون بطريقة شيخ السنة أبي الحسن الأشعري»¹.

ومن أقوال العلماء في سنية منهج الشيخ أبي الحسن الأشعري، جواب الشيخ أبي القاسم القشيري حينما استفتي فيه بخراسان فقال: «اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري كان إماما من أئمة أصحاب الحديث، ومذهبه مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة»².

وحصل استفتاء آخر في بغداد عن سنية علماء الأشاعرة فأجاب الشيخ أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله فأجاب عن ذلك بقوله: «الأشعرية أعيان أهل السنة وأنصار الشريعة، انتصبوا للرد على المبتدعة من القدرية والرافضة وغيرهم، فمن طعن فيهم فقد طعن على أهل السنة، وإذا رُفع أمر من يفعل ذلك إلى الناظر في أمر المسلمين وجب عليه تأديبه بما يرتدع به كل أحد»³.

وفي نفس الموضوع ورد سؤال من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين للقاضي أبي الوليد ابن رشد، رضي الله عنه، فأجاب بقوله: «وهؤلاء الذين سَمَّيتَ من العلماء أئمة خير، ومن يجب بهم الاقتداء؛ لأنهم قاموا بنصر الشريعة، وأبطلوا شبه أهل الزيغ والضلالة، وأوضحوا المشكلات، وبينوا ما يجب أن يدان به من المعتقدات، فهم بمعرفتهم بأصول الديانات، العلماء على الحقيقة، لعلمهم بالله عز وجل، وما يجب له، وما يجوز عليه، وما ينتفى عنه، إذ لا تعلم الفروع إلا بعد معرفة الأصول، فمن الواجب أن يُعترفَ بفضائلهم، ويُقرَّ لهم بسوابقهم، فهم الذين عَنَى رسول الله صلى الله عليه وسلم -والله أعلم- بقوله: «يحمل هذا العلم

1 - تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص 62.

2 - تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى: 3/ 374.

3 - تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى: 3/ 376.

من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»، فلا يَعتقد أنهم على ضلالة إلا غبي جاهل، أو مبتدع زائغ، عن الحق مائل، ولا يسبهم وينسب إليهم خلاف ما هم عليه إلا فاسق، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهَئِذَا هُمْ وَإِنَّمَا مَبِينٌ﴾⁴.....⁵.

هذه النصوص وغيرها تدل على انتهاء المذهبين الأشعري في العقيدة والمالكي في الفقه إلى أهل السنة والجماعة، ولا شك أن ذلك الانتماء كان له أثره الواضح في التكامل والانسجام بين المذهبين كما سنقف على ذلك في مظاهر التوافق بين المذهبين.

ثانيا: اشتراك أئمة المذهبين ورموزهما في العقيدة والمذهب

من تتبع أئمة المالكية ورموزهم وجددهم أشاعرة، ومن تتبع أئمة الأشاعرة وجد أغلبهم مالكية أو شافعية، وهذا ما صرح به عدد من العلماء كتاج الدين السبكي وغيره، ويكفي أن نذكر من هؤلاء الأعلام:

1 - الإمام أبو الحسن الأشعري:

أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه الذي هو إمام الأشاعرة ومؤسس مذهبهم العقدي كان مالكي المذهب، وفق ما ذهب إليه عدد من العلماء، ومنهم القاضي عياض في ترتيب المدارك وابن فرحون في الديباج، وغيرهما، قال القاضي عياض: «ذكر محمد بن موسى بن عمران في رسالته أنه كان مالكيًا، قال: وذكر لي بعض الشافعية أنه شافعي، حتى لقيت الشيخ الفاضل الفقيه رافعًا الحمال الشافعي فذكر لي عن شيوخه أن أبا الحسن كان مالكيًا»⁶، وقال ابن عساكر: «وَكَانَ فِي مَذْهَبِهِ مَالَكِيًّا عَلَى مَذْهَبِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»⁷، وهذا ما أكده غير واحد من المؤلفين من المالكية في الطبقات والتراجم والعقائد، غير أن هذا الانتساب ليس محل اتفاق بل تنازعه أهل المذاهب، ونسبه كل إلى مذهبه.

ويُرجع بعض الباحثين سبب اختلاف أهل المذاهب الفقهية في انتماؤه المذهبي إلى عدم تأليفه كتاباً في الأحكام يستفاد منه أنه مقتد بأحد الأئمة، أو أنه مستقل النظر في الأحكام، إلا أن مما يرجح مالكيته أن مذهب مالك رحمه الله كان مذهباً فاشياً بالعراق في عهده أيام القاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي قاضي بغداد. ويرى بعض الباحثين أن أبا الحسن الأشعري كان مجتهداً؛ لأن مثله لا يكون مقلداً في الفروع، يقول

4 - سورة الأحزاب، الآية 58.

5 - مسائل أبي الوليد بن رشد، 1/717.

6 - أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، 5/24.

7 - أبو القاسم ابن عساكر، تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ص 117.

الحجوي في الفكر السامي: «ولا بُد في أن يكون مجتهدا لا هو شافعي ولا مالكي؛ لما كان عليه من العلم الواسع، والفكر الشاسع، ويبعد أن يكون مثله مقلدا في ذلك العصر»⁸.

2 - القاضي أبو بكر الباقلاني

يعد القاضي أبو بكر الباقلاني المؤسس الثاني أو المؤسس الحقيقي للعقيدة الأشعرية وأحد رموز المذهب الأشعري في الاعتقاد، وهو تلميذ لتلامذة الأشعري، فهو قريب العهد به، ربط اسمه بالأشعري، فصار علماً عليه يُذكر في نسبه، فيقال: أبو بكر بن الطيب الباقلاني الأشعري، ولحماسته في الانتساب إلى الأشعري ونصرة مذهبه عده الأشاعرة المجدد على رأس المائة الرابعة، بعد الأشعري الذي يعتبرونه مجدد المائة الثالثة.

والباقلاني كان مالكي المذهب بلا نزاع، وكان مالكية المغرب والأندلس والقيروان يشدون إليه الرحال، فيأخذون عنه العقيدة الأشعرية وفقه مالك. (ومن أشهرهم: أبو عبد الله الأذري، وأبو طاهر البغدادي، وأبو عمران الفاسي)، وقد أسهم بدور كبير في ربط العقيدة الأشعرية بالمذهب المالكي تنظيراً وتنزيلاً تأصيلاً وتفريعاً؛ باعتباره منظراً ومجدداً للعقيدة الأشعرية ومؤسساً للتأليف في أصول الفقه عند المالكية.

3 - الإمام مالك بن أنس

مما هو معلوم ضرورة أن الإمام مالكا كان على منهج المتقدمين من أهل السنة والجماعة، وهذا المنهج السني الذي كان عليه الإمام مالك رحمه الله هو الذي جمع شتاته وقعد قواعده ورتب مسائله الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله، يقول ابن السبكي رحمه الله: «اعلم أن أبا الحسن لم يبدع رأياً ولم ينشئ مذهبا، وإنما هو مُقرّر لمذاهب السلف، مناضلٌ عما كانت عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريق السلف نطاقاً وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتدي به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يُسمى أشعرياً»⁹.

وهكذا فرغم تأخره عن الإمام مالك - حيث ولد أبو الحسن بعد سنة من وفاة مالك، إلا أن عقيدتهما في المجلد واحدة، ومنهجهما في الاعتقاد هو منهج أهل السنة والجماعة.

ومعلوم أن التفويض في الصفات هو منهج غالب المتقدمين من أهل السنة لعدم وجود دواعي التأويل، والقول بالتأويل هو منهج المتأخرين منهم لتوافر أسبابه ودواعيه.

8 - محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، 2/ 128.

9 - تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى: 3/ 365.

وتبعاً لهؤلاء الأعلام فإن الفقهاء المالكية كلهم أو على الأقل جلهم أشاعرة، مثل أبي الوليد الباجي وابن رشد وابن العربي والقاضي عياض وابن الحاجب وغيرهم كثير، وهذا ما يؤكد تاج الدين السبكي رحمه الله حيث يقول: «ذكروا أن الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة أشعريون»¹⁰.

وإذا كنا لا ندعي الاستقراء التام والحكم العام في أشعرية المالكية مما يتحقق به القطع واليقين، فإن أحداً لا يشك في أشعرية أغلبهم، وهو ما يتحقق بالنظر والاستقراء الناقص المفيد لغلبة الظن.

ثالثاً: منهج المالكية في التأليف

من أسباب التكامل والانسجام بين ثابتي العقيدة والمذهب عند المغاربة ذلك المنهج الفريد الذي اعتمده عدد غير يسير من الفقهاء المالكية، واتخذوه عادة ومنهجاً لهم في التأليف، وهو ضم مسائل العقيدة إلى كتب الفقه المالكي، بعضهم يختتم بها كتابه ضمن كتاب أو باب يُسمونه الكتاب أو الباب الجامع، وبعضهم يفرد بها بمبحث خاص في مستهل الكتاب، أو في ما يصطلح عليه بالمقدمات.

ويرجع السبق في هذا المنهج البديع إلى إمام المذهب مالك بن أنس في موطنه حيث ختمه بكتاب جامع تناول فيه مجموعة من المسائل والآداب التي لا تدخل في صميم الأبواب الفقهية، يقول ابن العربي رحمه الله عن هذا الصنيع: «هذا كتاب اخترعه مالك رحمه الله في التصنيف»¹¹.

فمن أشهر الكتب الفقهية التي تناولت قضايا العقيدة ضمن الباب الجامع:

• عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة لابن شاس.

• الذخيرة لشهاب الدين القرافي، الذي تحدث فيه عن عقيدة الإمام مالك رحمه الله، وقد صدره بقوله: «قال ابن القصار وغيره: مذهب مالك وجوب النظر وامتناع التقليد في أصول الديانات». ثم قال رحمه الله: «هذا الكتاب يختص بمذهب مالك لا يوجد في تصانيف غيره من المذاهب، وهو من محاسن التصنيف»¹².

ومن أشهر الكتب الفقهية التي تناولت قضايا العقيدة في باب مستقل في مطلعها:

• الرسالة لابن أبي زيد القيرواني التي صدرها بمبحث العقيدة تحت عنوان: «باب ما تنطق به الألسنة وتعتقد الأفئدة من واجب أمور الديانات»¹³.

10 - تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى: 3/ 373.

11 - أبو بكر بن العربي، القبس في شرح موطن مالك بن أنس، 1/ 1082.

12 - شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، الذخيرة، 13/ 231.

13 - أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، متن الرسالة، ص 5.

• القوانين الفقهية لابن جزي الذي صدره المؤلف بباب في العقيدة، وقال في مقدمات هذا الكتاب: «أعلم أنني افتتحته بعقيدة سنية وجيزة تقديماً للأهم فلا جرم أن الأصول أهم من الفروع ومن الحق تأخير التابع وتقديم المتبوع»¹⁴.

• المرشد المعين على الضروري من علوم الدين للإمام ابن عاشر رحمه الله الذي أشار إلى محتوى منظومته بقوله: في عقد الأشعري وفقه مالك ... وفي طريقة الجنيد السالك وقد صدر رحمه الله هذا النظم بـ «مقدمة لكتاب الاعتقاد معينة لقارئها على المراد».

وهذا المنهج ليس مبدأ عاماً ولا قاعدة مطردة في التأليف العقدي عند المالكية، بل هناك كتب استقلت بالعقيدة على سبيل المثال ما ألفه القاضي أبو بكر الباقلاني كـ «الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به»، وكتابه «تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل»؛ وابن الحاجب في عقيدته. والسنوسي في أم البراهين، وغيرهم.

ولا شك أن هذا المنهج في التأليف الفقهي ساعد على ربط العقيدة الأشعرية بالمذهب المالكي في الدراسة والتدريس وبين صفوف أهل العلم والفقهاء، وهو منهج سديد يربط بين الأصول والفروع؛ لما هو معلوم من أن فروع الدين مبنية على أصوله.

المبحث الثاني: مظاهر التكامل والانسجام بين العقيدة والمذهب

بعد عرض أهم أسباب التوافق والتكامل بين العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي نخصص هذا المبحث لعرض أهم مظاهر هذا التوافق سواء في الأصول أو في الفروع أو في المنهج بشكل عام.

أولاً: مظاهر التكامل بين العقيدة والمذهب في أصول الفقه

من المعلوم أن المالكية ينتمون في أصولهم إلى مدرسة المتكلمين، وقد مثل هذا الانتماء المنهجي مظهراً من مظاهر التكامل بين المنهج الأشعري والمذهب المالكي، ذلك أن رموز الأشاعرة هم الذين أثروا المدرسة الأصولية المالكية بنفائس أفكارهم، وأغنوها بغزير مؤلفاتهم، ومن هؤلاء القاضي الباقلاني وأبو الوليد الباجي، بالإضافة إلى أبي المعالي عبد المالك الجويني وأبي حامد الغزالي، ثم فخر الدين الرازي وسيف الدين الأمدي، مروراً بالقرافي وابن الحاجب والشاطبي وغيرهم.

وقد كان هؤلاء المتكلمين من الأشاعرة أثر بارز في علم أصول الفقه حيث مزجوه بنظرياتهم العقدية ومناقشاتهم الكلامية في ضوء العقيدة الأشعرية، يتجلى ذلك في:

14 - أبو القاسم محمد ابن جزي الكلبي الغرناطي، القوانين الفقهية، ص 8.

• مقدماتهم الأصولية التي يتناولون فيها مجموعة من القضايا العقدية مثل قضية: (التحسين والتقبيح، والحكم قبل ورود الشرع، وهل كان النبي صلى الله عليه وسلم متعبدا بالشرائع السابقة، وقضية التكليف بالمحال وبما لا يطاق، وقضية تكليف الغافل والمكره والملجأ، وقضية الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في الواجب في الأمر بواحد من أشياء).

• فيما هو مبثوث في مختلف أبواب علم أصول الفقه، ومن ذلك على سبيل المثال: (قضية تحديد مفهوم الكلام وإثبات الكلام النفسي، وتحديد مفهوم العلة وحكم تعليل الأحكام، والنهي هل يقتضي التحريم، أو يتوقف فيه إلى أن يرد الدليل. وإفادة خبر الآحاد الظن وعدم الاحتجاج به في العقائد، وحكم تخصيص العموم بالقياس، والإصابة والتخطئة في الاجتهاد في الظنيات). إلى غير ذلك من المسائل التي يطول ذكرها وشرحها.

ثانيا: مظاهر التكامل والانسجام في الفروع

من الطبيعي أن التوافق بين العقيدة والمذهب في الأصول يكون له أثر على مستوى الفروع، لما هو معلوم من بناء الفروع على الأصول، وسأقتصر على بعض الأمثلة لبيان هذا التوافق والانسجام:

المسألة الأولى: يرى الأشاعرة أن صفات الأفعال كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والبعث والنشور والسعادة والشقاء والهداية والإضلال والطاعة والمعصية والقبض والبسط حادثة، وترتب عن ذلك أنه لا ينعقد بها اليمين، قال الدردير: «الصفات الفعلية لا ينعقد بها اليمين على مذهب الأشاعرة، وأما على مذهب الماتريدية فينعقد بها اليمين أيضا؛ لأنها قديمة عندهم، ويسمون بالتكوين»¹⁵. وقال الشيخ خليل في ما لا تنعقد به اليمين: «لَا بَلْكَ عَلَيَّ عَهْدٌ، وَكَأَخْلَقَ، وَالْإِمَاتَةُ»¹⁶، قال ابن يونس: وصفات أفعاله: نحو الخلق والرزق والإحياء والإماتة فلا كفارة على من حلف بشيء من صفات أفعاله»¹⁷.

المسألة الثانية: الحكم بعدم كفر تارك الصلاة ومرتكب الكبيرة، وما يترتب عن ذلك من آثار فقهية من غسل ودفن في مقابر المسلمين وصحة زواج، وتوارث وغير ذلك. قال ابن أبي زيد القيرواني: «وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة»، قال العدوي: «ما قاله هو مذهب جميع أهل السنة سلفا وخلفا خلافا للخوارج»¹⁸.

15 - أحمد بن محمد الصاوي، بلغة السالك لأقرب المسالك، المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير، 1/ 328.

16 - خليل بن إسحاق بن موسى، ضياء الدين الجندي المالكي المصري، مختصر خليل، ص 82.

17 - أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي، الجامع لمسائل المدونة، 6/ 356.

18 - حاشية العدوي على شرح أبي الحسن على الرسالة: 1/ 102.

المسألة الثالثة: بنى بعض الأصوليين على مسألة الأمر بواحد من أشياء وقول الأشاعرة: يوجب واحدا بعينه أنه: «إذا ترك من وجبت عليه الكفارة جميع الخصال وقلنا للإمام المطالبة بالكفارات؛ أجبر بمقتضى مذهب الجمهور على فعل واحدة منها بدون تعيين، أما على مذهب المعتزلة؛ فيصح جبره على واحد بعينه؛ لأن الواجب عندهم القدر المشترك وهو يتأدى بأي خصلة فعلت»¹⁹.

المسألة الرابعة: أن المؤمن تقبل توبته بعد ظهور علامات الموت والغرغرة، وهو موضوع خلافي عقدي وفقهي. قال الشيخ محمد بن الحسن: «هذا قول الشيخ أبي الحسن الأشعري، وهو المختار عند المالكية. وقد ناقش الفخر الرازي هذه المسألة وخلص إلى أن المحققين من العلماء على أن «قرب الموت لا يمنع من قبول التوبة، بل المانع من قبول التوبة مشاهدة الأحوال التي عندها يحصل العلم بالله تعالى على سبيل الاضطرار»²⁰.

ثالثا: مظاهر التكامل والانسجام في المنهج

على الرغم من اختلاف الحقلين المعرفيين العقدي والفقهني فإن أوجه التشابه والتوافق بين المنهج الأشعري في الاعتقاد والمذهب المالكي في الفروع كثيرة، يكفي أن نذكر من ذلك في هذا المقام باعتبار المنهجين على الموازنة والتوليف بين اعتماد النقل والعقل.

فبالرجوع إلى المذهب المالكي نجده أوسع المذاهب على مستوى مصادر التشريع، وأن مصادره تجمع بين الأدلة النقلية والعقلية، وهذه الخاصية نفسها تميز بها المنهج الأشعري في الاعتقاد، ذلك أن الأشعري قد أسس مذهبه على ما جاءت به النصوص الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله، وهذا ما يخالف به منهج المعتزلة، ولكنه في الوقت نفسه يدافع عن العقيدة السليمة، وينظر خصومه بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية، وبذلك فهو يعتمد ذلك المزج البديع بين الأدلة العقلية والنقلية، وعلى الأخص إذا تعلق الأمر ببعض الصفات التي لا يمكن إثباتها إلا بالأدلة العقلية؛ لأن النقل يتوقف على إثباتها كالوجود، وإثبات النبوة.

المبحث الثالث: آثار التكامل والانسجام بين العقيدة والمذهب

التكامل بين العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي له آثار عملية كثيرة، أذكر ثلاثة منها في هذا المقام.

أولا: الالتزام بعقد البيعة الشرعية

البيعة الشرعية هي رابطة دينية، وعقد اجتماعي وسياسي بين الراعي والرعية، تجسدها مؤسسة أصيلة في الإسلام هي مؤسسة «إمارة المؤمنين» أو «الإمامة العظمى» التي هي: «خلافة النبوة لحراسة الدين

19 - أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، هامش تحقيق كتاب الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي، 40/1.

20 - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، 9/10.

وسياسة الدنيا»²¹، وبموجب هذه البيعة يسهر الإمام الأعظم على رئاسة الدولة وممارسة صلاحياته الدينية والدنيوية، وقد اتفقت المذاهب العقدية والفقهية المعتمدة على وجوب تنصيب الإمام وطاعة أمره، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾²² وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»²³.

إلا أنهم اختلفوا في طاعة الإمام الجائر وحكم الخروج عنه²⁴، وقد اتفق الأشاعرة والمالكية في عدم جواز الخروج عليه رغم جوره وفسقه حفاظا على تماسك الجماعة، وتحصينا للدماء وعملا بقاعدة ارتكاب أخف الضررين، قال ابن عبد البر: «وإلى منازعة الظالم الجائر ذهبت طوائف من المعتزلة وعامة الخوارج، وأما أهل الحق وهم أهل السنة فقالوا هذا هو الاختيار أن يكون الإمام فاضلا عدلا محسنا، فإن لم يكن فالصبر على طاعة الجائر من الأئمة أولى من الخروج عليهم؛ لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف؛ ولأن ذلك يحمل على إهراق الدماء وشن الغارات والفساد في الأرض، وذلك أعظم من الصبر على جوره وفسقه، والأصول تشهد والعقل والدين أن أعظم المكروهين أو لاهما بالترك»²⁵.

وقال عياض في إكمالها: «وأحاديث مسلم التي أدخل في الباب كلها حجة في منع الخروج على الأمراء الجورة ولزوم طاعتهم»²⁶. وقال أيضا: «جمهور أهل السنة من أهل الحديث والفقه والكلام: لا يخلع بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق، ولا يجب الخروج عليه بل يجب وعظه وتخفيفه»²⁷؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيُّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»²⁸. قال ابن عبد البر في شرحه لهذا الحديث: «ففي هذا الحديث أن من الدين النصيحة لأئمة المسلمين وهذا أوجب ما يكون فكل من واكلهم وجالسهم وكل من أمكنه نصيح السلطان لزمه ذلك إذا رجا أن يسمع منه. وروى معمر عن الزهري عن السائب بن يزيد قال: قال رجل لعمر بن الخطاب: ألا أخاف في الله لومة لائم خير لي أم أقبل على أمري؟ فقال: أما من ولي من أمر المسلمين شيئا فلا يخف في الله لومة لائم ومن كان خلوا فليقبل

21 - أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 5.

22 - سورة النساء، الآية: 58.

23 - صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) [النساء: 59].

24 - ذكر النووي «أن هذا الخلاف كان أولا، ثم حصل الإجماع على منع الخروج عليهم» شرح صحيح مسلم، 12/229.

25 - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، 23/279.

26 - أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي، شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمِ الْمُسَمَّى إِكْمَالُ الْمُعْلَمِ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ، 6/256.

27 - أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي، شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمِ الْمُسَمَّى إِكْمَالُ الْمُعْلَمِ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ، 6/247.

28 - الإمام مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

على نفسه ولينصح لأمره. وسئل مالك بن أنس: أيأتي الرجل إلى السلطان فيعظه وينصح له ويندبه إلى الخير؟ فقال: إذا رجا أن يسمع منه وإلا فليس ذلك عليه»²⁹. وقال أبو عمر: «إن لم يكن يتمكن نصيح السلطان فالصبر والدعاء فإنهم كانوا ينهون عن سب الأمراء»³⁰.

ثانيا: وسطية المنهجين واعتدالهما بالنظر إلى المذاهب الأخرى

تميز المنهج الأشعري في الاعتقاد بالوسطية والاعتدال بالنظر إلى غيره من الفرق، كما تميز المذهب المالكي بالوسطية في التكاليف مقارنة مع غيره من المذاهب الفقهية.

فمن وسطية المنهج الأشعري نذكر:

- الوسطية في مفهوم الإيمان: ذلك أن الجهمية قالوا: إن الإيمان تصديق بالقلب فقط والكرامية قالوا: إن الإيمان نطق باللسان فقط، وذهب الأشاعرة إلى أن الإيمان اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح، إلا أن عمل الجوارح شرط في كمال الإيمان وليس شرط صحة.

- الوسطية في حكم مرتكب الكبيرة بين الخوارج المكفرين له، والمعتزلة الذين خلدوه في النار، أما الأشاعرة فقالوا إنه مسلم عاص وليس بكافر، ويفوض أمره الأخروي إلى مولاه.

- الوسطية في قضية التكليف والجبر والاختيار، حيث ذهب المعتزلة إلى الاختيار المطلق، وذهب الجبرية إلى الجبر المطلق، وتوسط الأشاعرة وقالوا بنظرية الكسب، فقالوا إن الأفعال لله وإن الإنسان لديه الكسب الذي يترتب عليه التكليف.

- الوسطية في إثبات صفات الله تعالى، ذلك أن هناك فرقا كلامية اتجهت إلى تعطيل الصفات ومن هؤلاء المعتزلة الذين أنكروا صفات المعاني، وهناك طوائف ذهبوا إلى تجسيم الذات الإلهية تعلقا بظواهر النصوص، وذهب الأشاعرة إلى إثبات هذه الصفات وغيرها ثبوتا يليق بالذات العالية، فأثبتوا له سبحانه كل صفات الكمال، ومنها صفات المعاني القديمة، ونفوا عنه كل صفات النقص والمائلة للحوادث، لذلك سلكوا مسلك التأويل المعتبر لكل النصوص التي توهم إثبات صفة لا تليق بالذات العالية.

ومن وسطية المذهب المالكي نذكر: أنه مذهب وسط بين أهل الرأي وأهل الأثر، لا إفراط فيه ولا تفريط، ولا غلو ولا تشديد، ولا غرابة ولا شذوذ، ولا جمود ولا تعقيد، ولا تمرد ولا تكفير، يقول بالقياس، ويجذب الأخذ بالرخص، ويكره الأخذ بغرائب الأقوال وشواذ الأحكام، يحب الاتباع ويكره

29 - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، 21/ 285.

30 - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، 21/ 287.

الابتداع، ويحرم استعمال الحيل للتخلص من الواجبات أو التوصل إلى المحرمات، ويرفض نتائجها ويؤاخذ المحتال بنقيض قصده، ويحرمه من الاستفادة من حيلته، ويعاقبه على فعلته³¹.

ثالثا: تعايش المذهبين مع المخالفين في الدين والرأي

يعد المنهج الأشعري في الاعتقاد أكثر المذاهب الإسلامية تعايشا مع المخالفين؛ لأنه يؤمن بعدم إكراه الناس على اعتناق الإسلام؛ لأن الخالق سبحانه وتعالى كرم الإنسان ووهبه العقل لإعماله في التفكير والتدبر، وليميز به بين الخير والشر، وأعطاه الحرية التي لا تقل أهمية عن العقل، والتي بها يكون مسؤولا عن أفعاله، فلا «مسؤولية بغير حرية»؛ ولذلك نجد النصوص الشرعية تؤسس دعوتها إلى الإسلام على الإقناع والقول الحسن، والمجادلة بالتي هي أحسن، وليس بالإكراه، قال تعالى: ﴿أَقْبَلْتِ تَكْرِهًا النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾³². وقال سبحانه: ﴿وَجَاهِلُكُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾³³.

ومن مظاهر التعايش في العقيدة الأشعرية أيضا: إبطال بعض الفهوم المغلوطة لقضية الولاء والبراء مع غير المسلمين، والاعتقاد بأن الولاء يعني المولاة لله ورسوله والمؤمنين وذلك بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، ومحبة رسوله والمؤمنين وتقوية آصرة المحبة والتعاون والتعايش بين المؤمنين. وأما البراء فيعني تبرؤ المسلم من الكفر وكره الوقوع فيه باعتباره نقيض الإيمان، ولكن لا يلزم من ذلك أن يكره غير المسلمين ويمتنع عن معاملتهم ومشاركتهم ومدائنتهم والزواج منهم وغير ذلك من وجوه التعامل، لقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُفَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُغْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِلُوا عَلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُسْلِمِينَ﴾³⁴.

ونفس الخاصية يتميز بها المذهب المالكي حيث يؤسس لمبدأ التعايش مع المخالف والمؤالف وذلك من خلال مجموعة من الخصائص أهمها كما يقول أستاذنا سيدي محمد التاويل رحمه الله:

- اتخاذ شرع من قبلنا شرعا لنا ما لم يرد ناسخ.
- إباحته الاقتداء بالمخالف في الفروع ولوترك شرطا من شروط الصلاة أو ركنا من أركانها في الفقه المالكي إذا كان الإمام لا يراه شرطا ولا ركنا في مذهبه.
- تصحيحه حكم المخالف لمذهب مالك ومنع نقضه وإن خالف المشهور أو الراجح في المذهب المالكي.

31 - محمد التاويل، خصائص المذهب المالكي، درس حسني خلال شهر رمضان 1425 هجرية.

32 - سورة يونس، الآية: 99.

33 - سورة النحل، الآية: 125.

34 - سورة الممتحنة، الآية 8.

• قوله في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن المختلف فيه لا يجب فيه الأمر بالمعروف ولا النهي عن المنكر.

• قوله إذا لم يوجد نص للمالكية في النازلة المعروضة فإنه يعمل فيها بالفقه الشافعي أو الحنفي على خلاف بينهم.

• استحسانه العمل برأي المخالف ابتداء في بعض مواطن الخلاف من باب الورع والخروج من الخلاف، قراءة البسملة سرا، وقراءة الفاتحة خلف الإمام للخروج من خلاف الشافعي.

• إباحته الخروج عن المذهب والعمل بقول المخالف عند الحاجة وفي بعض القضايا التي يصعب فيها الأخذ بالفقه المالكي أو لغير ذلك من الأسباب³⁵.

من خلال ما تقدم من أسباب التوافق والانسجام بين أصول العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي ومظاهر هذا التوافق وآثاره، ندرك أن المذهبين متكاملان في أصولهما وفروعهما متجانسان في مسائلهما وقضائيهما، مما كان له انعكاس واضح على تدين المغاربة عقيدة وشريعة وسلوكا تأثرا بما تميز به المذهبان من وسطية واعتدال وانفتاح وبعد عن الغلو والتطرف ونبذ التكفير، والتعايش مع المخالف والمؤالف ومراعاة الخلاف في الأصول والفروع، وهو ما أسهم في الاستقرار الفكري والعقدي في المغرب وامتداده الأفريقي حيث تشاركه في هذه الثوابت العقدية والمذهبية العديد من البلدان الأفريقية الشقيقة.

وهذان الثابتان العقدي والمذهبي إلى جانب باقي الثوابت وخاصة إمارة المومنين والتصوف السني كلها تعتبر صمام أمان للبلاد والعباد، وبها ومن خلالها تنعم المملكة المغربية بنعمة الأمن والأمان والتعايش والتسامح والاستقرار، كما أنها صلة وصل بين المملكة المغربية الشريفة وعمقها الإفريقي.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

شيخ الجماعة محمد المكي البطاوري (1274-1355هـ) وجهوده في خدمة العقيدة الأشعرية

• ذ. عدنان زُهار

أستاذ باحث بالجديدة

تقديم:

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. أما بعد، فقد أثبت الواقع أن المذاهب التي أسسها أصحابها، ونظموا دعائمها، لا تبقى بعدهم، إن خلت الأزمنة من رجال عنها منافحين، ولأصولها وفروعها حماة مدافعين، كما هو مشهور في كثير من المذاهب الفقهية البائدة، كمذهب سفيان الثوري بالعراق، ومذهب الليث بن سعد بمصر، ومذهب عبد الرحمن الأوزاعي بالشام، وغيرها؛ بل، وانطمرت معالم مذاهب نحوية وأدبية وأصولية وفلسفية وحديثية وعقدية كثيرة، للسبب نفسه، إضافة لأسباب موضوعية وعلمية أخرى، لكنها في تأثير اضمحلال تلك المدارس أقل منزلة.

والعقيدة الأشعرية مدرسة فكرية مبنية على الجمع بين العقل والنقل، في مسائل التوحيد المفرعة إلى الأقسام الثلاثة الشهيرة: إلهيات ونبوات وسمعيات، وهي مدرسة فكرية عقدية ساخنة، في زمان أبي الحسن وقبلة وبعده.

ورغم كل تلك النزاعات الغارقة في العصبية، والمتأثرة سلبا وإيجابا بالسياسة، بقي مذهب الأشعري رائدا، وظل عصورا طويلة وقرونا مديدة على غيره من المذاهب العقدية ظاهرا. لم تؤثر فيه رياح النعرات، ولا معارك طلب العثرات، حتى انتسب إليه فحول الأمة في كل علوم الملة، حديثا وتفسيرا ولغة وأدبا وأصولا وتاريخا وطبا وهندسة، وغير ذلك.

قال السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»¹: «اعلم أن أبا الحسن الأشعري لم يُبدع رأياً، ولم يُنشئ مذهباً، وإنما هو مقررٌ لمذاهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريق السلف نطاقاً وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتدي به في ذلك، السالك سبيله في الدلائل؛ يسمى أشعرياً». اهـ.

ويقول أيضاً²: «وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة في العقائد يد واحدة، كلهم على رأي أهل السنة والجماعة، يدينون الله تعالى بطريق شيخ السنة أبي الحسن الأشعري رحمه الله».

ثم يقول بعد ذلك: «وبالجملة؛ عقيدة الأشعري هي ما تضمنته عقيدة أبي جعفر الطحاوي، التي تلقاها علماء المذاهب بالقبول، ورضوها عقيدة». اهـ.

وقال الشيخ محمد العربي ابن التُّبَّاني، شيخ المالكية في الحرم المكي³: «فحول المحدثين من بعد أبي الحسن إلى عصرنا هذا أشاعرة، وكتب التاريخ والطبقات ناطقة بذلك». اهـ.

وإنما كان للمذهب الأشعري هذا الظهور على غيره، لصحة أصوله من جهة، ولوجود طبقات متعاقبة من العلماء على طريقة إمامه، تجردوا لبيان الغامض، ورفع ستار المشكل، والجواب عن استفسار المشكك؛ ولأجل هذا، جمع أسماء بعضهم إماماً للأشاعرة في زمانه، الحافظُ ابنُ عساكر الدمشقي رحمه الله، في كتابه النفيس: «تبيين كذب المفتري فيما نسب للأشعري». وقدمه بمقدمة في التعريف بالإمام أبي الحسن الأشعري، وتاريخ نظره في المباحث العقدية، وما قيل فيه من تعديل وتبجيل.

ولم يشذَّ عن هذا المسلك علماء المغرب، على عادتهم في قبول الأصلح، والتمسك به في كل قضايا الدين. فبمجرد ما عرفت عقيدة الأشعرية في المغرب - بما هو مفصل في كتب التاريخ والدراسات العلمية - اعتقد فيها الأئمة الأعلام، واعتنقوا مذهبها بلا شك ولا ارتياب، بل وكان لهم - بعد أن نضجت العقيدة في دارهم، واستوت على جودي القناعة والإقناع - دورٌ في التأليف فيها، والتصنيف في مباحثها، سواء في تقريرها اختصاراً، أو بسط مباحثها تفصيلاً وإطناباً، أو الجواب عن الإشكالات الواردة عليها احتجاجاً واستدلالاتاً، أو نظم مبادئها تأصيلاً وتفريراً...

وبرزت في زمن الدولة العلوية المجيدة أسماء أعلام مجددين، لهم قدم صدق في علوم الدنيا والدين، ألفوا وحاضروا ودرسوا، وعمرُوا المدارس بالعلوم التي بثوها في الطلاب، ونقحوا الفوائد والفرائد كتاباً

1 - «طبقات الشافعية»، 2/ 254.

2 - «معيد النعم ومبيد النقم»، ص 62.

3 - «براءة الأشعريين من عقائد المخالفين»، ص 120.

بعد كتاب، بما تجد بعضه موجودا في كتاب «النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية»، للعلامة المؤرخ المولى عبد الرحمن بن زيدان، رحمه الله.

ومن هؤلاء الأعلام الذين شاركوا في عدة علوم، وبصموا تاريخ العلم والمعرفة في الأزمنة المتأخرة، الإمام العلامة شيخ الجماعة سيدي محمد المكي بن محمد البطاوري الرباطي، المتوفى رحمه الله عام (1355هـ). وها أنا ذاكر في المباحث الآتية، بعض أياديه البيضاء على العقيدة الأشعرية.

المبحث الأول: التعريف بالبطاوري⁴

هو الفقيه المحدث سيدي محمد المكي بن محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عبد القادر بن سعيد، أبو حامد، الشهير بالبطاوري الشرشالي، المحدث الحافظ، شيخ الجماعة بالرباط بلا مدافع، وحامل لواء العلم والتدريس بها بلا منازع.

ولد في ربيع الأول عام 1274هـ، ونشأ في أسرة معروفة بالعلم. قرأ القرآن أولا على والده، ثم انتقل إلى كتاب الأستاذ المؤدب الشاعر الكاتب محمد بن أحمد الرغاي الرباطي، وعنه تلقى مبادئ الحساب، وبعض علوم الآداب، وحفظ عدة متون. ثم بعد ذلك شرع في تلقي العلم على يد جماعة من المتقنين والعلماء العاملين، ك: العلامة أبي إسحاق إبراهيم بن محمد التادلي الرباطي، وعمه أبي عبد الله محمد التهامي بن علي البطاوري، وأبي عبد الله الهاشمي بن أحمد الزياني، والقاضي أبي العباس أحمد بن عبد السلام مئلين، وغيرهم.

وحجّ، فسمع بالمدينة المنورة المسلسل بالأولية من الشيخ عبد الجليل برادة وأجازه. ولقي أيضا في وجهته هذه بالإسكندرية، أبا إسحاق إبراهيم باشا، والشيخ عبد اللطيف الحلبي، وتلقى منهما.

وبلغ المترجم مكانة علمية مرموقة، أهلته لتولي عدة مناصب؛ فعمل كاتباً مع صهره محمد بركاش، النائب السلطاني بطنجة آنذاك، سنة 1290هـ. ومكث في عمله هذا زهاء عشر سنوات، ثم انتدبه الخليفة المولى رشيد بن عبد الرحمن بن هشام لتعليم أولاده. وفي سنة 1311هـ عينه السلطان المولى الحسن الأول لتعليم أولاده، الذين كانوا بقبيلة مزاب. وبعد ذلك، عُين عدلا بمرسى الرباط مرتين، ثم صار عدلا بديوانة طنجة. وفي سنة 1323هـ ورد تعيينه قاضيا برباط الفتح، فتولى قضاءها إلى أن أعفي سنة 1333هـ.

4 - مصادر الترجمة: «الاغتباط»، لبوجدان، ص 230؛ «إنحاف المطالع»، لابن سودة، 2/ 475؛ «من أعلام الفكر المعاصر»: 2/ 214-226، و«شيخ الجماعة العلامة محمد المكي البطاوري»، كلاهما لعبد الله الجراي؛ «سل النصال»، لعبد السلام ابن سودة، ص 80-81؛ «معلمة المغرب»، لجماعة من العلماء، 4/ 1261-1262.

ومن ثناء العلماء عليه، ما قاله في حقه الفقيه مولاي أحمد بن المامون البلغيثي (ت1348): «مركز دائرة الأدب وواسطة قلاذته، ومعنى شرف الرتب ورابطة إفادته، الحائز قصب السبق في حلبة الفضائل، المتسم برقة الطبع، حسن الشمائل، العلامة النقاد، المتفنن النحرير، الدراكة بالذهن الوقاد...»، إلى آخر كلامه، في رسالة بعث بها إليه.

وقال عنه الشيخ عبد السلام ابن سودة: «العالم العلامة الجليل، حامل راية التحقيق بالرباط، وشيخ الجماعة به».

رُزق رحمه الله الإعانة على التأليف، مع الجودة والتلخيص، فزادت مؤلفاته على الأربعين مؤلفا، بين مطبوع ومخطوط. وهذه بعض أسماؤها: «الدروس الحديثية في المجالس الحفيظية»، «الاستعداد بشرح قصيدة بانث سعاد»، «شرح البيقونية»، «طرر وهوامش على نسخة من مختصر الإمام البخاري لابن أبي جمر»، «تقييد في ختم الموطأ»، و«تقييد على الموطأ»، وهو عبارة عن حواش وتقريرات وضعها على نسخته من الموطأ، وغيرها من المؤلفات النافعة، والكتب الماتعة في أبوابها.

«شرح الأرجوزة الفائقة المستعذبة الرائقة فيما يحتاج الآتاي إليه ويتوقف شره وإقامته عليه، لأديب فاس عبد السلام الأزموري».

وافاه الأجل المحتوم ليلة الأربعاء ثاني محرم سنة 1355هـ / 25 مارس 1936م، ودفن بالرباط.

المبحث الثاني: اعتناء البطاوري بالعقيدة الأشعرية دراسة وتدرسا وتأليفا

لا يخفى على متتبع مطلع، أن العقيدة الأشعرية هي عقيدة جمهور أهل السنة والجماعة. وعلماء المغرب عن بكرة أبيهم كانوا أشاعرة، اللهم من شذ منهم فانتحل مذهبا في الأصول غير مذهب الجماعة، لأسباب موضوعية وتاريخية، بل ونفسية، يحتاج ملخصها إلى دراسة مستقلة أخرى.

ولم يكن يعرف في المغرب منذ عهد الموحدين عقيدة غير الأشعرية، بل اجتهد العلماء المغاربة لتأليف المطولات والمختصرات، وقيدوا التقايد المختلفة، لتثبيت عقيدة الأشعري، بحيث لم يعلم لهم مخالف، حتى قيل: إن لأشعرية المغرب خصوصية ليست لغيرهم من بلاد الإسلام.

ذلك أن تقريراتهم في العقيدة الأشعرية ابتدائية تعليمية، لعدم وجود المنكر وكثرة المعاند، بخلاف أشاعرة المشرق، الذين عانوا من المذاهب المخالفة والمعتقدات المختلفة، الشيء الذي أحوجهم إلى سلوك منحى آخر في التأليف في العقيدة الأشعرية، بموجب الرد والتصويب والجدل والحجاج.

أما الشيخ البطاوري، فقد فتح عينيه على أكبر علماء الأشاعرة في زمانه، الذين لم يسمحوا بتسريب غيرها إلى مدارس الشريعة في المغرب، سواء بفاس أو الرباط أو مراكش أو طنجة، أو غيرها. كما أنه تلقى

في مبتدأ أمره مبادئ العقيدة الأشعرية، وانطبع بها انطبعا كبيرا، بقي أثره وظهر في إنتاجاته ومؤلفاته، كما سيأتي.

فقد قرأ «جوهرة التوحيد» للقاني على الخطيب القاضي أحمد بناني، وهي من المنظومات الشهيرة المختصرة لعقيدة الأشاعرة، ومعتمدة في تدريس العقائد في المغرب وأكثر البلاد الإسلامية. ودرس أيضا «المرشد المعين» على يد شيخه إبراهيم التادلي، والمعروف عند الطلاب أن القسم الأول منه خاص بالعقيدة الأشعرية، حيث قال ابن عاشر في مبتدئه:

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيّد السالك

كما درس متونا أخرى في العقيدة أو في مقدماتها، مثل: «مختصر» السنوسي في المنطق بشرحه أيضا، وطرفا من «إيساغوجي»؛ وهما متنان مهمان، لفهم عويصات علم الكلام على طريقة الأشعرية.

ولا شك أن هؤلاء العلماء الذين أخذ عنهم وسمع منهم البطاوري، وهذه الكتب التي درسها وفحص ما فيها، وفكت له مغلقاتها، سيكون لذلك أثر كبير في بناء فكره العقدي، وتثبيتته على مذهب أهل السنة المنتحلين مذهب أبي الحسن الأشعري رحمه الله.

وهو ما لا تردد فيه، حيث صار الشيخ محمد المكي البطاوري أحد أبرز علماء الأشاعرة، يُدرج في طبقاتهم بلا منازع؛ بل هو من كبار المنافحين والمدافعين عنها، والمؤلفين في أصولها وفروعها. فله - خلافا لغيره -، جملة من التأليف في هذه العقيدة السنية، منها:

1 - الحلل المجوهرة في شرح الجوهرة، أي جوهرة التوحيد للقاني.

2 - شرح رسالة الوضع لعضد الدين الإيجي.

3 - شرح السلم، أي السلم المرونق للأخضري في علم المنطق.

4 - شرح صغرى السنوسي، أي عقيدة السنوسي الصغرى.

5 - نظم رسالة الوضع لعضد الدين الإيجي.

6 - نظم عقيدة السنوسي وشرحها.

فهذه ستة كتب في العقيدة الأشعرية ومقدماتها لمؤلفين أشاعرة، توضح بجلاء الجهد الكبير الذي قدمه المترجم في العقيدة الأشعرية، والذي به تميز عن غيره من العلماء.

المبحث الثالث: منهج الشيخ البطاوري في التصنيف في العقيدة

نهج شيخ الجماعة المكي البطاوري في كتبه التي اعتنى فيها بالعقيدة الأشعرية طريقة خاصة، رأى أنها المناسبة لمقصده في تثبيت دعائم هذه العقيدة في قلوب وعقول العامة والطلاب، وذلك باختياره لكتب عامة عمل عليها شروحا، وباختياره لغة خاصة تناسب قدرات الفهم عند أهل زمانه، وباختياره وترجيحه لمباحث عقدية وكلامية خاصة. وسأحاول تقسيم هذه العناصر، إلى مطلبين:

المطلب الأول: اعتناء البطاوري بالعقيدة الوسطى السنوسية وبجوهرة التوحيد للقاني

إن اختيار البطاوري للعقيدة السنوسية الصغرى وجوهرة التوحيد للأخضري، له دلالة كبرى في نهجه طريقة الأشاعرة المتأخرين في التحرير المنهجي والاختيارات العقدية. وقد أشار إلى هذا الاختيار وذلك المنهج، في مقدمة كتابيه المذكورين.

قال في شرح «أم البراهين»⁵: «الحمد لله الموصوف بكل كمال، المنزه عما لا يليق بها له من العظمة والجلال، الفاعل المختار لما شاء من الأفعال. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الصادق الأمين، المبلغ ما أمر بتبليغيه للعالمين، والرضا عن ساداتنا آله وأصحابه حملة الدين، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد، فإن شرف العلم بشرف المعلوم، وأشرف العلوم وأفضلها على الإطلاق علم التوحيد، الموصل إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، الموصلة إلى سعادة الدارين.

وللعلماء فيه تأليف لا تحصى، ومن أشهرها وأنفعها تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة البركة الولي الصالح سيدي محمد بن محمد بن يوسف السنوسي دفين تلمسان، المتوفى سنة خمس وتسعين وثمانمائة، رضي الله عنه وأرضاه، خصوصا مقدمته الصغرى التي قال رضي الله عنه مادحا لها: إنها لا نظير لها فيما علمت. ودعا في آخر شرحها لقارئها، بقوله: وَمَنْ اللّٰهُمَّ عَلَىٰ مِنْ حَفَظَ الْعَقِيدَةَ بِحَسَنِ الْخَاتَمَةِ، والفوز بعموم الغفران. اللهم اجعل حفظها لهم نورا عظيما في الدنيا والآخرة، واعطهم بسببها بلا محنة من الفردوس الأعلى أعلى المنازل الفاخرة، واحفظنا وإياهم على الممات من جميع الفتن... إلخ دعائه.

واشتهر من بركاتها ما حكى عن بعض الصالحين، أنه رؤي بعد موته ف قيل له: ما فعل الله بك؟ قال: أدخلني الجنة، ورأيت سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام يُقرئ عقيدة سيدي محمد السنوسي الصبيان، وهم يقرؤونها في الألواح، ويجهرون بقراءتها. قال الراوي: وأظنه قال: العقيدة الصغرى... إلى غير ذلك. وعليها للعلماء رضي الله عنهم من الشروح والخواشي ما لا يكاد يحصى، أجلها وأحسنها شرح مؤلفها رضي الله عنه...» اهـ كلام البطاوري رحمه الله.

5 - «شرح أم البراهين»، للبطاوري، ص 2.

وفيه براعة استهلال عند قوله: «الموصوف بكل كمال»، حيث مذهب الأشاعرة في إثبات الصفات الثلاثة لله جل جلاله، مخالفا المعطلة والجهمية؛ وعند قوله: «المنزه عما لا يليق به من العظمة والجلال»، لينسجم مع مذهبهم أيضا في تنزيهه عز وجل عن كل أوصاف المحدثات، مخالفا المجسمة والمشبهة؛ وعند قوله أيضا: «الفاعل المختار لما شاء من الأفعال»، ليثبت المشيئة والإرادة مع الحكمة له تعالى، مخالفا مذاهب المعتزلة والقدرية والمعطلة...

وفيه أيضا تصريح باعتناؤه بهذه العقيدة، لكونها جمعت أصول وفروع التوحيد على مذهب أهل السنة، على اختصارها وغزارة فوائدها.

ولقد لخص دور البطاوري في باب الفكر العقدي، العلامة الدكتور محمد أمين السماعيل، خلال تقديمه لتحقيق كتاب «شرح البطاوري على أم البراهين»، قائلا⁶: «فهذا العمل هو عبارة عن قراءة آنية لمخطوط (مقدمات على شرح السنوسية)، لشيخ الجماعة محمد المكي البطاوري؛ فهو يمثل مرحلة مهمة من تطور المذهب العقدي في بلادنا المغربية، والذي سار في نهجه على منهج أبي الحسن الأشعري، بعد احتياج الجهد الفكري في عصره إلى مثل ما قام به من عمل، قصد تعاضد الأفكار والآراء، من أجل ثبات الأمة المغربية، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وإخراجها من ارتكاسات أملت بها من جراء ما مرحت فيه الأفكار، حتى تضيق الأمة وسعا وتستسلم لعدو طالما تربص بها الدوائر. فقيض الله لها شيخ الجماعة محمد المكي البطاوري، ليلم بشعته، ويزيل القنط عنها، ويوسع رجاءها في الله وفي نفسها؛ حيث دفع بالتفكير العقدي في الاتجاه الصحيح، بجانب علوم أخرى تبعث على الأمل في طريق التطهير ودرء الصدع، بإشعال فتيل الأمل.

وكان التشابه بينه وبين شيخه الأشعري متشابها، حيث ظهر الأشعري بعد فشل الجهد الفكري الذي بذلته المعتزلة، رجاء الوصول إلى معادلة متوازنة ومقبولة، بين غلو المعتزلة في الأخذ بالدليل العقلي، وبين من قدس النص وجمده على ظاهره، دون مراعاة حوادث الزمن المتغيرة، وذلك في الفترة من النصف الثاني للقرن الثالث الهجري، والنصف الأول من القرن الرابع، وهي الفترة التي شهدت ازدهار فكر أهل السنة والجماعة. والبطاوري الذي عاش في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، حيث توفي سنة 1936م، وجد الحال في البلاد المغربية تترقبه مصائب المستعمر بكل ألوان التربص، مما جعل تقاييده على السنوسية (أم البراهين) إحياء للتفكير العقدي، وتجديدا للإيمان، لصد كل عدوان على الدين والوطن، وهو تمهيد لترسيخ الهوية الدينية والوطنية». اهـ المقصود منه.

6 - «شرح أم البراهين»، للبطاوري، ص 5.

قلت: وهذه القراءة من خبير تاريخ العقيدة والفرق والنحل في المغرب، الدكتور السماعيل، اختصار لكل ما يمكن أن يقال عن دور التأليف في العقيدة الأشعرية، بالأسلوب والنهج الذي اختاره البطاوري، حيث جعل له أدوارا فعالة في الدين والدنيا.

ويمكن أن نفكك هذا التحليل النظري الدقيق من شيخنا الدكتور السماعيل، في الملاحظات الآتية:

• كتابات البطاوري في العقيدة تمثل مرحلة جديدة في تطور الفكر العقدي بالمغرب، وأرى ذلك من جهتين: الأولى من حيث أسلوبه الذي اختار له السهولة والتيسير، والثانية من حيث تصديده لأصوات تسفيه الأشعرية التي ظهرت في زمان البطاوري.

• كتابات البطاوري في العقيدة مسهمة في ثبات الأمة المغربية فكريا ثم سياسيا، حيث إن وحدة العقيدة نواة لاستتباب الأمن في البلاد، والخلاف فيها أصل كل فتنة، كما يشهد لذلك التاريخ الصحيح في كثير من مناطق وبلدان المشرق الإسلامي.

• كتابات البطاوري في العقيدة صححت مسار الفكر العقدي في المغرب، عند ظهور التيارات المخالفة والمشوشة. إذ يفهم من كلام الدكتور السماعيل، أن العقيدة الأشعرية لا يقتصر اعتناقها على تصديق القلب، بل يتعدى إلى حفظ الأوطان من الشرور الداخلية والخارجية.

• كتابات البطاوري في العقيدة كانت ضرورة فكرية ملحة في ظروف زمانه الفكرية والسياسية. والحاصل أن الاعتماد على «أم البراهين» في تثبيت كل هذه المعاني والمبادئ، له قيمته المعرفية الواضحة، من حيث الشكل والمضمون، كما سيظهر فيما يلي بحول الله.

أما في ديباجة شرحه على «جوهرة التوحيد»، فقد قال البطاوري⁷: «الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. القادر المريد، الفعال لما يريد. ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، اللطيف الخبير، العلي الكبير. والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، الصادق الأمين، والرضا عن آله وأصحابه أجمعين.

وبعد، فهذا تقييد مختصر على (جوهرة التوحيد)، للشيخ العلامة سيدي إبراهيم اللقاني المالكي، المتوفى كما في «كشف الظنون» سنة إحدى وأربعين وألف. وهو نسبة إلى لقانة، قرية من قرى مصر. أخذ عن الشهاب العبادي، والشهاب الخفاجي، والعلقمي، وغيرهم، كما في (نشر المثاني). رحمه الله تعالى، ورضي عنه، ونفعنا ببركته، آمين.

7 - «الحلل المجوهرة في شرح الجوهرة»، ورقة 1 (مخطوط).

قال العلامة الصاوي في (حاشيتها): كان الشيخ إبراهيم اللقاني من أرباب الأحوال والكشف، وأنشأ هذه المنظومة ليلاً، بإشارة شيخ التربية في التصوف، سيدي أحمد عرب الشرنوبلي، رضي الله عنه وعن جميع أوليائه، ذكره رحمه الله تعالى في شرح (تائية السلوك).

فقصدت شرحها بما يناسب حال المبتدئين، تسهيلاً لتعاطيها، وتبركاً بها، وسميته: (الحلل المجوهرة في شرح الجوهرة)، والله ينفعنا به، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير...» اهـ المقصود منه.

وفي هذه الديباجة أيضاً براعة استهلال، تدل على مضمون الكتاب؛ إذ أشار بقوله في التقديم: «الحمد لله الواحد الأحد...» إلخ، إلى عقيدة التوحيد الخالص، الذي هو مرتكز مذهب الأشاعرة، وأصلهم الأصيل في مركبات مادة علمهم. وفي قوله: «القادر المريد، الفعال لما يريد...»، إشارة أيضاً إلى سلامة مذهب الأشاعرة في نسبة القدرة المطلقة لله جل جلاله، خلافاً للطوائف المنحرفة في هذا الباب، كالمعتزلة. ثم إن البطاوري أوضح منهجه في كتابيه النفيسين في العقيدة الأشعرية، فقال في الأول: «وللعلماء فيه تأليف لا تحصى، ومن أشهرها وأنفعها تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة البركة الولي الصالح سيدي محمد بن محمد بن يوسف السنوسي دفين تلمسان، المتوفى سنة خمس وتسعين وثمانمائة، رضي الله عنه وأرضاه، خصوصاً مقدمته الصغرى، التي قال رضي الله عنه مادحاً لها: إنها لا نظير لها فيما علمت...»

وهو صريح في أن اشتغاله واعتناؤه بالعقيدة الصغرى للسنوسي، يرمي إلى تقريب العقائد المختصرة للعموم، وحثهم على معرفة أصول هذه العقيدة، التي بها تتحقق الغاية من التكليف، بمعرفة الله ورسله وكل أمور السمعيات.

ثم أكد على منهجه في «شرح أم البراهين»، قائلاً⁸: «ولما كان هذا العلم أول واجب على المكلف، وقد يقصر إدراك المبتدي عن بعض عبارات ذلك الشرح الحفيل، رأيت أن أقيد على المقدمة المذكورة شرحاً يكون كالمقدمة لشرح المؤلف، مقتصر فيه على حل ألفاظ المتن بعبارات واضحة يفهمها كل أحد، لكي يسهل معه تكرار المقدمة المذكورة، فترسخ عقائد الإيمان، ويعم النفع إن شاء الله سبحانه...» اهـ

المطلب الثاني: النهج التأصيلي للشيخ البطاوري في كتبه العقيدية

لقد لخصه الدكتور محمد أمين السماعيل في مقدمة تحقيقه لـ «شرح أم البراهين»، فقال⁹: «وضع محمد بن المكي البطاوري منهج أبي الحسن الأشعري والباقلاني والجويني والغزالي، وسار على هديهم محافظاً على

8 - «شرح أم البراهين»، ص 3.

9 - «شرح أم البراهين»، ص 3.

أصل تفكيرهم، ومقيدا قواعدهم باجتهاد منه قويم، يحلل ويناظر، ويفهم الأصول المبنية على الوحي، ويقرئ القواعد التي وضعها أهل العلم دون شطط في الفهم، أو تزيد على النص. همه التوصل إلى ترسيخ العقيدة في النفوس، والإقناع بها في القلوب، وجعل هدي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم نبراسا يهتدى به، مما حجب شرحه لكل قارئ مرید للحق باحث عنه، في سلامة أسلوب، ووحدة راسخة، وتقرب من الحق، دون حصره في هوى أو طيب ساذج، بل المبتغى المقصود هو الفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وجعل العمل خالصا لوجهه الكريم ... اهـ

هذه ملاحظ مختصرة عن منهج الإمام البطاوري في كتابيه الرئيسين في العقيدة: «شرح أم البراهين» و«شرح جوهر التوحيد»:

ففي كتاب «شرح أم البراهين» اعتمد على الطريقة الآتية: التقديم بالبسملة، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والحمدلة، مع مراعاة براعة الاستهلال، للإشارة لموضوع تأليفه، كما مريانه. ثم الحديث عن علم العقيدة باعتباره أشرف العلوم، والدلالة على ذلك. ثم الحديث عن أشرف وأنفع التأليف في علم العقيدة، وذكر كتاب أم البراهين للسنوسي، وبيان خصائصه وبركاته المشتهرة عنه.

ثم ذكر الشروح الكثيرة المعتمدة لأم البراهين موضوع الشرح. ثم ذكر أنفع الشروح وأولها بالاعتبار، وهي شرح مؤلفها الإمام السنوسي نفسه. ثم ذكر المقصود من شرح المؤلف على السنوسية، مع كثرة الشروح السابقة، وبيان غرضه، بكونه يروم التسهيل والتقريب.

ثم شرح البسملة والحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، باختصار شديد. ثم الشروع في شرح باقي مباحث الكتاب العقدية، والذي تميز بالمنهج العلمي الرصين، المبين في المباحث الآتية:

- يعتمد الشارح الشيخ البطاوري ذكر المقصود من صنيع المؤلف السنوسي، وحكمة تقديم بعض المباحث على بعض، تيسيرا للطالب وتدرجاً له للوقوف على الغاية من هذا العلم.
- يميل إلى إعراب بعض الكلمات، يبتدئ بها الشرح لزيادة الوقوف على المعاني الدقيقة لكلمات المؤلف، مثلاً في مقدمته قال: «(اعلم) فعل أمر، وفاعله ضمير المخاطب، وهو هنا كل عاقل».

• يعتمد تعريف الكلمات العلمية الدقيقة تعريفا اصطلاحيا، كما في قوله في تعريف الحكم: أن الحكم، وهو إثبات أمر الأمر، كإثبات وجوب صلاة الظهر، في قولنا: صلاة الظهر واجبة؛ أو نفي أمر عن أمر، كنفي الوجوب عن صلاة الضحى، في قولنا: صلاة الضحى ليست واجبة. اهـ

• يعتني بشرح التعاريف التي يوردها المؤلف السنوسي زيادة في البيان، كما في قوله في تعريف الواجب عند قول السنوسي: "فالواجب ما لا يتصور في العقل عدمه"، أي ما لا يقبل العقل عدمه ونفيه، وهو قسمان: ضروري ونظري ... إلخ.

• يعتني البطاوري بذكر الأمثلة لمقالات المؤلف، تبصيرا وتبيينا للمطالع، كما في قوله: فالضروري هو الذي يدركه العقل دون تأمل، مثاله: "حركة الذات، فإنها جائزة يقبل العقل وجودها في الذات، فتكون الذات متحركة؛ ويقبل أيضا عدمها، بأن تكون الذات ساكنة، ولا يحتاج إلى تأمل". اهـ

• يستدل في شرحه أحيانا بكتاب الله تعالى، كما في قوله للدلالة على ما يجب على المكلف معرفته، لقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: (51)]، «ولا تكون العبادة إلا بعد معرفة المعبود» اهـ.

• يستدرك المؤلف أحيانا على الشارح استدراكا للبيان والتفصيل، لإزالة الأوهام اللازمة عن احتمالات الحسبان الخيالي، فيفصل متى اقتضى البيان ذلك، كما في حديثه عن صفة المخالفة للحوادث: "وما ورد في القرآن، كما يظهر منه خلاف ذلك، كاليد والوجه، في قوله تعالى: ﴿يك الله فوق أيديهم﴾ [الفتح 10]، وقوله سبحانه: ﴿ويبغى وجه ربك﴾ [الرحمن 27]، فيجب علينا أن نعتقد أن ظاهره وهو الجارحة، محال لا يتصور في العقل وجوده، لأنه تعالى مخالف لخلقه، ونقول: الله أعلم بمراده. اهـ

وكما استدرك في تفسير عدم وجود شيء في الكون لا يريد تعالى وجوده، فقال: وإنما فسر المصنف هنا الكراهة بعدم الإرادة، احترازا من الكراهة بمعنى النهي، فليست محالا في حقه تعالى، بل هي جائزة، فقد أوجد سبحانه كثيرا من الأفعال مع نهيه عنها، كالمعاصي التي تصدر من الخلق، فإنها واقعة بإرادته سبحانه، والمحال هو أن يوجد شيء من كونه تعالى غير مرید له تعالى أن يقع في ملكه ما لا يريد. اهـ

أما في كتاب الشيخ البطاوري الآخر، «الحلل المجوهرة في شرح الجوهرة»، فقد اعتمد في تحرير المباحث العقدية، طريقة مقاربة لمنهج في شرح «أم البراهين»، معتمدا الاختصار وتقريب المعاني، وترك الخوض في الفروع المنطقية الجدالية، مع بعض الخصائص في «الحلل»، أجمل ذكرها فيما يلي:

• تدبج الشرح بمقدمة سجعية.

• التصريح بغرض التأليف.

• الحديث عن قيمة القصيدة.

• الاعتناء بشرح البسملة والحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، شرحا مختصرا، على خلاف عاداته في باقي مصنفاته الأخرى، خاصة الأدبية منها، التي يطيل فيها النفس في بيان المعاني والدقائق والأسرار والنفائس.

• الاعتناء بالإعراب المختصر للكلمات والجمل.

• الاعتناء في التقديم ببعض الألوان البلاغية.

• من ميزات هذا الشرح، أي "شرح الجوهرة"، اعتماد الشيخ البطاوري أحيانا على بعض الآيات الشعرية، تقوية لمنزعه وتوكيدا لمذهبه، على عادة الشراح، كما في قوله عند بيان معنى آل البيت:

علي وعباس عقيل وجعفر وحمزة هم آل النبي بلا نكر

• ومن ميزات هذا الشرح أيضا، توثيق النقول، وذكر الأصول المعتمدة، كما في قوله: «قال ابن الأثير: أجمع المحققون على أن فصل الخطاب هو: أما بعد...». وهذا لا يكاد يوجد له مثل في «شرح أم البراهين».

• يتعرض الشيخ البطاوري في "الحلل" أحيانا للخلاف في بعض المباحث الدقيقة دون تفصيل فيها، بخلاف منهجه في "شرح أم البراهين"؛ فمثلا، قال في مبحث (أول واجب على المكلف)، لما قدم أن المعرفة بالله تعالى ومعرفة رسله واجبة على المكلفين، ذكر أنها أول الواجبات، وهو قول الإمام الأشعري. وقيل: أول الواجبات النظر الموصل إليها، ونُسب له أيضا. وقيل: القصد إلى النظر، أي تفرغ القلب عن الشواغل، ونُسب للقاضي الباقلاني. وقيل: غير ذلك.

• مما تقدم، يتبين أن للمغاربة حضورا في التمسك بالعقيدة الأشعرية والدفاع عنها. وما جهود الشيخ محمد البطاوري إلا نموذج يزكي ما تقدم في البحث أعلاه، رحمه الله تعالى وغفر له.

التأويل عند الأشاعرة وتحسين العقيدة الإسلامية

• ذ. أحمد شافوف

أستاذ باحث بمكناس

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

ظهر الفكر الأشعري أول ما ظهر في المدرسة السنية القيروانية بتونس. ويعتبر دراس بن إسماعيل¹ أول من أدخله إلى المغرب، ثم مر بعد ذلك بعدة مراحل قبل أن يصبح مذهباً رسمياً للمغرب منذ القرن السادس الهجري وإلى يوم الناس هذا.

وقد عُرف المغاربة منذ الدولة الإدريسية، باستقرارهم السياسي، وتوجههم السني المعتدل، وخصوصاً مع دخول المذهب المالكي، الذي وحد كلمتهم، وجمع صفّهم، ولم شتاتهم عبر العصور، فتميزوا فيما بعد بوحدة العقيدة، والمذهب، والسلوك في ظل إمارة المؤمنين.

وهذه هي الثوابت والخصوصيات الدينية التي ارتضاها المغاربة وأجمعوا عليها منذ قرون خلت. وقد أدرك الفقهاء المالكية أهمية ربط المذهب الفقهي المالكي بالجانب العقدي تحصيناً لعقيدة الناس فصدروا بعض كتبهم بمباحث العقيدة، كرسالة ابن أبي زيد القيرواني الملقب بمالك الصغير، ومقدمة منظومة ابن عاشر، وكتاب الجامع من الذخيرة لشهاب الدين القرافي².

1 - هو الفقيه الحافظ، الصالح العابد، أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الفاسي، وتنسب لأبي ميمونة رسالة في الدفاع عن الأشعرية حيث يحكى عنه أنه كان متحمساً للمذهب الأشعري، وتوفي رحمه الله في ذي الحجة سنة (357هـ) على المشهور من الأقوال، وذكر بعضهم أنه توفي سنة (358هـ)، وقيل غيرها، ودفن بفاس خارج باب الفتوح، وقد جدد السلطان أبو عنان المريني قبره سنة (754هـ)، ووضع عليه مربعة رخام منقوشة باسمه، وتاريخ وفاته، واعتبر من أولياء مدينة فاس. أنظر: تاريخ ابن الفرضي (2/173)، بغية الملتبس (ص292)، ترتيب المدارك (6/81)، تاريخ الإسلام (8/115)، جذوة الاقتباس (1/194)، نيل الابتهاج (ص175)، الروض العاطر الأنفاس (ص49)، سلوة الأنفاس (2/197)، معلمة المغرب (12/3987).

2 - دليل الإمام والخطيب والواعظ، ص19.

ومن مزايا المذهب الأشعري عدم عزل «العقل» في مجال العقائد، فإذا كانت المعتزلة تعتمد على العقل في المسائل الكلامية، ويؤولون النصوص القرآنية عندما يجدونها مخالفة لأرائهم، فإن الإمام الأشعري جاء بمنهج معتدل، وأعلن أن المصدر الرئيس للعقائد هو الكتاب والسنة، وفي الوقت نفسه خالف أهل الحديث بذكاء خاص عن طريق استغلال البراهين العقلية والكلامية على ما جاء في الكتاب والسنة، معتمدا في ذلك منهجا وسطا يعتمد التأويل حينما يدعو الداعي إليه وتستجيب اللغة له، وتتوفر له كل الشروط الموضوعية.³

لذلك اختار المغاربة المذهب الأشعري باعتباره مذهبا متكاملا يمتلك قدرة فائقة على التأسيس والإقناع والمناقشة، ولما لمسوه فيه - أيضا - من حفاظ على جوهر العقيدة، وحرص على درء التشبيه والتعطيل، ولما فيه من وسطية تتجاوز القراءة الحرفية للنصوص، كما تتجاوز التأويل البعيد الذي يصادر دلالة النص من غير داع ملجئ إليه.⁴

وبذلك توسط الأشاعرة في المنهج والآراء بين العقلانيين والنصيين، حيث ينطلقون من النص الشرعي ثم يعزونه بالأدلة العقلية والبرهانية، فمذهبهم توفيقى يقف موقف معتدلا في كل القضايا التي بلغ التباين فيها حد التناقض.

أولا: جذور التأويل ومفهومه

ترجع جذور التأويل -الذي ظل قاسما مشتركا بين كل المذاهب العقدية في مستواه الأدنى دون أن يتجاوز حدود التأويل الإجمالي⁵ - إلى ارتباطه بالتفسير بالمأثور، الثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، والمفضي إلى الفهم والإفهام بغرض الوصول إلى مقاصد الحقيقة الشرعية. كما أن سبب ظهور مصطلح التأويل كان إبان ظهور القول بالمجاز. فما معنى التأويل؟ وما المراد به عند الأشاعرة؟

1 - التأويل لغة

يدل لفظ «التأويل» في وضعه اللغوي على عدة معان تؤول إلى المرجع، والمصير، والعاقبة، والتفسير، والبيان، والتدبر، والارتداد....

ثم إن مدلول هذا اللفظ في الرجوع من الأول، وأصله: آل يؤول أولا⁶. وتأويل الكلام: أي عاقبته وما يؤول إليه، ويجعل من ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الْكَايِنُ نَسْؤُهُ

3 - مقال د. مصطفى بنحمزة، مجلة الجذوة، ص 73، إصدار المجلس العلمي الأعلى بالمملكة المغربية، العدد الأول، أبريل 2013م.

4 - دليل الإمام والخطيب والواعظ، ص 20 و 21.

5 - مصطفى بنحمزة، مجلة الجذوة، ص 73.

6 - الأزهرى، تهذيب اللغة، مادة أول، 15 / 437.

من قبل فـمـ جاءت رسل ربنا بالحق فـقل لنا من شععاء فيشبعوا لنا أو نرء فنعمل غير ذلك2 كنا نعمل فـمـ خسروا أنعسفهم وذل عندهم ما كانوا يعتزون ﴿ [سورة الأعراف آية 52] أي: ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم.⁷ والتأويل: التفسير؛ أي: تفسير ما يؤول إليه الشيء، وأولته وتأويله بمعنى واحد.⁸

وقد وردت كلمة «التأويل» في القرآن الكريم سبع عشرة مرة، وكلمة «التفسير» مرة واحدة. وتعني كلمة التأويل في القرآن تفسير الأحلام وتأويل الأحاديث، كما في قصة يوسف عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿نمنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ [سورة يوسف، آية 36]، وقوله أيضا: ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ [سورة يوسف، آية 44]. كما تعني أيضا الإخبار عن حدوث أمر قبل وقوعه بالفعل، كما في قوله تعالى: ﴿قال لا ياتيكما لصعام ترزفانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن ياتيكما﴾ [سورة يوسف، آية 37].

وتعني كلمة التأويل كذلك تأويل ظاهر الأفعال التي قام بها العبد الصالح سيدنا الخضر؛ من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وهي كلها أفعال بدت لسيدنا موسى عليه السلام مناقضة لما عليه ظاهر العبد الصالح من العلم والصالح والتقوى، وهو ما جعل سيدنا موسى عليه السلام يعترض. ولفظ «التأويل» أو «التأول» مختص بتدبر الكلام وتقديره وتفسيره، ومنه التأويل الذي هو عبارة عن الرؤيا.⁹

وأطلق الإمام الطبري (ت 310هـ) اسم «التأويل» على تفسيره، محذرا مدلول هذا اللفظ في كلام العرب بأنه «التفسير والمرجع والمصير، وأصله من آل الشيء إلى كذا إذا صار ورجع، يؤول أولا، وأولته أنا إذا صيرته إليه. ويفسر قوله تعالى: ﴿لعلنا خير وأحسن تأويلا﴾ [سورة النساء آية 58] بالجزاء. وذلك لأن الجزاء؛ هو الذي آل إليه أمر القوم وصار إليه.¹⁰

2- التأويل اصطلاحا

يرتبط لفظ التأويل عند علماء العقيدة بالنصوص العقدية المتشابهة - آيات الصفات من الكتاب والسنة - التي يوحى ظاهرها بمشابهة الذات الإلهية المقدسة للحوادث أو الممكنات التي من صفاتها أن لها صورة وجسما، وهي مؤلفة من أجزاء ولها زمان خاص ومكان خاص. والله سبحانه وتعالى لا يشبهها في شيء من

7 - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 1/ 160.

8 - الرازي، مختار الصحاح، مادة «أول»، ص 13.

9 - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، باب اللام مع الألف، 3/ 341.

10 - الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 1/ 184.

هذا ولا من غيره، لأنه كما يقول الإمام الأشعري رحمه الله: «لو أشبهها لكان حكمه في الحدث حكمها، ولو أشبهها لم يخل من أن يشبهها من كل الجهات أو من بعضها، فإن أشبهها من جميع الجهات كان محدثاً مثلها من جميع الجهات، وإن أشبهها من بعضها كان محدثاً من حيث أشبهها، ويستحيل أن يكون المحدث لم يزل قديماً وقد قال الله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير﴾ [سورة الشورى، آية 9]. وقال سبحانه: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ [سورة الإخلاص، آية 4]»¹¹.

ثانياً: التأويل عند الأشاعرة: مفهومه، ودوافعه، وضوابطه

1 - مفهوم التأويل عند الأشاعرة

عرف الجرجاني التأويل بأنه: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، إذا كان المحتمل الذي يراه المؤول موافقاً للكتاب والسنة.¹²

وحدد الإمام أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك (ت 406هـ) معنى التأويل بأنه: «صرف الكلام عن ظاهره إلى وجه يحتمله»¹³.

والتأويل عند ابن رشد (ت 595هـ): «إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب»¹⁴. وعرفه تاج الدين السبكي (ت 771هـ) بقوله: «التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حُمِلَ لدليل: فصحيح، أو لما يُظن دليلاً: ففاسد، أو لشيء: فلعب، لا تأويل»¹⁵. وقد سلك الأشاعرة مسلك التأويل لوجود نصوص ذات معان خفية تحتاج لإدراك معانيها إلى التأويل.¹⁶ وهو بحسب الفخر الرازي لا بد منه في بعض ظواهر القرآن.¹⁷

والتأويل عند الأشاعرة نوعان:

التأويل الإجمالي: وهو أن ترد كل معاني الصفات في الجملة وتقول بأن ظاهرها غير مراد، لقواطع وبراهين عقلية قامت على أن الله لا يشبهه شيء، فهذا هو التأويل الإجمالي.

11 - الإمام الأشعري، اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، ص: 84.

12 - الجرجاني، التعريفات، باب التاء، ص: 22.

13 - أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني، الحدود في الأصول، ص: 146.

14 - ابن رشد، فصل المقال، ص: 97.

15 - تاج الدين السبكي، جمع الجوامع، ص: 131.

16 - الغزالي، إلهام العوام عن علم الكلام، ص: 5.

17 - فخر الدين الرازي، أساس التقديس، ص: 79.

والتأويل التفصيلي: وهو أن تأخذ كل آية من آيات الصفات، وتخرجها بتأويل على مقتضى أي وجه من أوجه اللغة أو أي معنى كان، ولو كان معنى بعيداً.

وخلاصة الكلام فإن التأويل عند الأشاعرة هو حمل اللفظ على خلاف ظاهره مع بيان المعنى المراد، فيحكم المكلف بأن اللفظ مصروف عن ظاهره قطعاً، ثم يؤول اللفظ تأويلاً تفصيلياً بأن يبين فيه المعنى الذي يظن أنه المقصود من اللفظ. ويقابل هذا المدلول لفظ «التفويض» الذي يعني صرف اللفظ عن ظاهره، مع عدم التعرض لبيان المعنى المراد منه، بل يترك ويفوض علمه إلى الله تعالى بأن يقول: الله أعلم بمراده¹⁸.

2 - بواعث التأويل عند الأشاعرة

يشكل اشتغال القرآن الكريم على الآيات المحكمة والمتشابهة، سبباً رئيساً ودافعاً أساساً جعل الأشاعرة يعتمدون التأويل، وفق ضوابط شرعية. وترجع بواعث التأويل عند الإمام الأشعري إلى ما يأتي:

أ - مواجهة المعتزلة، إذ جعل العقل خادماً للنصوص لا حاكماً لها، واختار طريقة المعتزلة في الاستدلال لقطع حجتهم. وفي الوقت نفسه تصدى للرد على الفلاسفة والقرامطة والباطنية وغيرهم.

ب - رد دلالة النصوص المتشابهة إلى النصوص المحكمة.

ج - صرف اللفظ عن ظاهره الراجح إلى احتمال مرجوح لوجود قرينة.

قال صلاح الدين بن أحمد الإدليبي: «... فانظر إلى تمسك الأشاعرة بظاهر ما يدل عليه اللفظ، وإلى أن الخروج عن ظاهر اللفظ إنما يصح عند قيام الدليل القاطع على أن ظاهره محال ممتنع، وهو ما يطلقون عليه «التأويل الصحيح»، أما الخروج عن ظاهر اللفظ لما يظنه المرء دليلاً دون أن يكون في حقيقة الأمر دليلاً فهو «التأويل الفاسد»، وأما الخروج عن ظاهر اللفظ لا لدليل ولا لشبهة دليل فهذا لعب وليس من التأويل¹⁹.

د - درء التعارض بين الأحكام العقلية القطعية وظواهر بعض ألفاظ النصوص إذا فهمت تلك الألفاظ في غير سياقها الذي وردت فيه:

فالاحتجاج بقوله تعالى: ﴿فَنَسِيحُهُمْ﴾ [سورة التوبة، آية 67] على أن الله نسياناً يليق به: مرفوض، والاحتجاج بقوله تعالى في الحديث القدسي: «وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»²⁰ على

18 - الباجوري، شرح جوهر التوحيد، ص 149.

19 - صلاح الدين بن أحمد الإدليبي، عقائد الأشاعرة في حوار هادئ مع شبهات المناوئين، ص 134.

20 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «ويحذركم الله نفسه»، حديث رقم: 7405.

قرب المسافة: مرفوض. وكذا الاحتجاج به على أن الله مشيا وهرولة يليقان به: مرفوض؛ وذلك لأن الظواهر من الألفاظ المبتورة عن سياقها ليس هو المراد من النصوص، بل المراد من النصوص هو ما يظهر من معانيها في ظل سياقاتها، وفي ظل الصور البلاغية التي اشتملت عليها، والذي يؤول هو ظواهر الألفاظ المبتورة عن السياق، وذلك لأنها تتناقض مع النصوص الثابتة المحكمة، والأحكام العقلية القطعية.²¹

3 - ضوابط التأويل عند الأشاعرة

لا يشك باحث منصف في كون التأويل بمفهومه العلمي قام بدور مهم وفعال في إثراء النص الديني، وأسهم إلى حد كبير في تكوين منظومة تشريعية شاملة تواكب النزعة التجديدية للإسلام، وتستوعب جميع النظريات التي أبدعها مفكرو الإسلام في هذا المجال.

وإذا كان التأويل قد حظي بعناية المتكلمين واهتمامهم، فإن ذلك لا يعني أنهم استخدموه استخداما مطلقا، إنما كان استخدامهم له مقيدا ووفق ضوابط معينة، وللتأويل عند الأشاعرة ضوابط أهمها:

أولا: الظاهر هو الأصل، فلقد قرر علماء العقيدة أن النصوص تحمل على ظاهرها، ولا يعدل عن الظاهر إلا إذا دل دليل قاطع من الكتاب أو السنة الصحيحة أو الإجماع أو اللغة أو العقل على استحالة حمل النص على ظاهره.

ثانيا: كثرة الاستعمال واشتهاره، إذ ينبغي توجيه معاني القرآن الكريم إلى المعنى الظاهر المشتهر استعماله بين الناس في زمان الرسالة، ولا يجوز توجيهها إلى المعنى الخفي المستعمل على قلة.

ثالثا: أن لا يخالف التأويل أصلا شرعيا ثابتا، فحمل اللفظ على معنى مخالف لما قد تبين في أصول الدين أو قواعد الشرع، وغير جار على وفق قواعد العقل واللغة يعد تأويلا باطلا، وهذا متفق عليه²².

رابعا: تحقيق التنزيه المطلق لله تعالى في الذات والصفات والأفعال وإبطال كل ضروب التشبيه والتجسيم المخلة بهذا المبدأ الذي عليه مدار كل أصول الاعتقاد²³.

خامسا: احتمال اللفظ لما صرف له، من شروط التأويل الصحيح أن يكون اللفظ محتملا للمعنى الذي صرف إليه. ومن ثم لا يجوز تأويل النص القرآني عن طريق حمله على تأويل لا يحتمله اللفظ. وهذا الشرط يقتضي أن يكون المؤول على اطلاع واسع بلغة العرب وأساليبها...

21 - صلاح الدين بن أحمد الإدليبي، عقائد الأشاعرة في حوار هادئ مع شبهات المناوئين، ص 141.

22 - الإمام أبو بكر محمد بن فورك، مشكل الحديث وبيانه، ص 44.

23 - عبد الرحمن حسي، المذهب الأشعري وأثره في التفسير، ص 115.

سادسا: أن يكون المتأول أهلا لذلك، وهذا الربط يتعلق بممارس فعل التأويل الذي يتعين أن يكون متصفا بالفضيلة الخلقية والعلمية، خيرا باللغة العربية وأساليبها، عالما بأصول الشرع وأحكامه....²⁴

سابعا: أن يدل السياق على المعنى المصرّوف إليه، يقول الإمام الطبري رحمه الله: «فتوجيه الكلام إلى ما كان نظيرا لما في سياق الآية أولى من توجيهه إلى ما كان منعدلا عنه»²⁵.

ثامنا: الابتعاد عن كل مظاهر الغلو والشطط في التأويل وكل ما من شأنه أن يحيل أبحاث العقيدة ومسائلها إلى قضايا عقلية جامدة وخلافات جدلية عقيمة.²⁶

تاسعا: أن يكون المعنى المصرّوف إليه اللفظ مما يصح في أوصافه تعالى...²⁷

عاشرا: أن تكون ثمة ضرورة شرعية تدعو إلى التأويل، وذلك بأن نخشى على إنسان مسلم من ذهاب عقيدته، وإلا فالتمسك بمذهب السلف الذي يعني تفويض معاني النصوص المتشابهة إلى الله تعالى وحده بعد تنزيهه عن ظواهرها المستحيلة أولى من فعل التأويل.²⁸

ثالثا: أمثلة ونماذج من تأويلات الأشاعرة

1 - آيات الصفات

اختلف الأشاعرة في تفسير بعض آيات الصفات التي يدل ظاهرها على التشبيه، فمنهم من سلك مسلك التفويض. ومنهم من سلك هذا المسلك في بعضها وأول بعضها الآخر. ومنهم من أولها كلها بناء على ما تقرر عندهم من الدلائل النقلية والعقلية واللغوية المحققة لمبدأ التنزيه.

ومن الآيات التي كانت موضع هذا الخلاف بين الأشاعرة: الآيات المشعرة بظواهرها أن الله تعالى أعضاء كالوجه والعين واليد والجنب والساق.²⁹

فما ورد في العين: قوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة هود، آية 37]، ولموسى عليه السلام: ﴿وَلْتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِنَا﴾ [سورة طه، آية 39]، ولمحمد عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [سورة الطور، آية 46].

24 - حسين حامد الصالح، التأويل اللغوي في القرآن الكريم: دراسة دلالية، ص 80 و 98.

25 - الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 6 / 91.

26 - عبد الرحمن حسي، المذهب الأشعري وأثره في التفسير، ص 115.

27 - أبو بكر بن فورك، مشكل الحديث وبيانه، ص 44.

28 - الإمام الباجوري، شرح جوهر التوحيد.

29 - عبد الرحمن حسي، المذهب الأشعري، وأثره في التفسير، ص 131.

أما أبو بكر بن فورك وأبو منصور البغدادي وأبو المعالي الجويني وفخر الدين الرازي، فصرفوا هذه الآيات عن ظاهرها ولم يثبتوا لله "العين" بمعنى الصفة الذاتية، كما صرفوا الآيات التي ورد فيها لفظ الوجه. فأول ابن فورك لفظ العين في الآيات المذكورة بالحفظ والكلاءة والرعاية.³⁰ وقال أبو منصور البغدادي: «وزعم بعض الصفاتية أن العين المضافة إلى الله تعالى صفة له، والصحيح عندنا أن عينه رؤيته للأشياء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَصْنَعِ عَلَى عَيْنِ﴾ [سورة طه آية 39]، أي على رؤية مني، كما قال: ﴿إِنِّنَّ مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [سورة طه، آية 45]، وقوله في سفينة نوح: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة القمر، آية 14] أراد بها العيون التي جرت بها السفينة من الماء، لأنه قال: ﴿فَبَعَثْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمَرٍ وَمَجْرْنَا الْأَرْضَ عَيْنُونَا فَانْقَمَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ فَلَمْ يَأْكُلْ﴾ [سورة القمر، آيات 10-11-12]، فجرت السفينة بتلك العيون المفجرة".³¹

2- آيات الأفعال

أول الأشاعرة كل الآيات الواردة في الخير والاختيار والهداية والإضلال، والتوفيق والخذلان³²، وغيرها من آيات الأفعال، ومن تأويلاتهم لهذا الصنف:

- قول الرازي في تأويل قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشْكِلَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ فَلِكُلِّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِمَا لَهَؤْلاءِ الْغُومِ لَا يَكْفُرُونَ يَجْفِقُونَ حَدِيثًا﴾. [سورة النساء، آية 77]: «...اعلم أن السيئة تقع على البلية والمعصية، والحسنة على النعمة والطاعة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَاوَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾»³³. وقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُكَفِّرْنَ السَّيِّئَاتِ﴾»³⁴.

30 - الإمام أبو بكر بن فورك، مشكل الحديث وبيانه، ص 259 - 262.

31 - أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي، أصول الدين، ص 110.

32 - عبد الرحمان حسي، مذهب الأشعري وأثره في التفسير، ص 183.

33 - سورة الأعراف، الآية 168.

34 - سورة هود، الآية 114.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿وإن تصبهم حسنة﴾³⁵ يفيد العموم في كل الحسنات، وكذلك قوله: ﴿وإن تصبهم سيئة﴾³⁶ يفيد العموم في كل السيئات، ثم قال بعد ذلك: ﴿فل كل من عند الله﴾. فهذا صريح بأن جميع الحسنات والسيئات من الله.

ولما ثبت بما ذكرنا أن الطاعات والمعاصي داخلتان تحت اسم الحسنة والسيئة كانت الآية دالة على أن جميع الطاعات والمعاصي من الله وهو المطلوب»³⁷.

خاتمة

لقد كان للمذهب الأشعري في العقيدة والمالكي في الفقه، ومذهب الجنيدي في التصوف حضور وازن ومتميز بالمغرب وارتباط وثيق ولصيق به على مدى قرون عديدة متوالية، حيث تعد ثوابت راسخة في تحديد هويته الدينية، وتجنبه الكثير من الفتن والانحرافات والبدع الضالة.

ويعد المذهب الأشعري مذهباً عقائدياً متكاملًا ومتوازنًا يتميز بمنهج الوسطية والاعتدال لجمعه بين العقل والنقل وإعطائه الأولوية - أحياناً - للتأويل عند وجود تعارض بين النصوص الشرعية والعقل الصحيح.

وصلى الله وسلم على البشير النذير والسراج المنير سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

لائحة المصادر والمراجع:

- 1 - القرآن الكريم.
- 2 - الإبانة عن أصول الديانة، الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى، مكتبة دار البيان، دمشق، 1401 هـ - 1981 م.
- 3 - الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، إمام الحرمين، أبو المعالي الجويني، تحقيق محمد يوسف موسى، بدون ذكر رقم الطبعة، مكتبة الخناجي، مصر، 1950 م.
- 4 - أساس التقديس، فخر الدين الرازي، تحقيق أحمد حجازي، بدون ذكر رقم الطبعة، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1406 هـ - 1986 م.

35 - سورة النساء، الآية 77.

36 - سورة النساء، الآية 77.

37 - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب المشهور بالتفسير الكبير، 10/ 193 - 194.

- 5 - الأسماء والصفات، أبوبكر البيهقي، بدون ذكر رقم الطبعة، دار الكتب العلمية بيروت، بدون تاريخ.
- 6 - أصول أهل السنة والجماعة المسماة برسالة أهل الثغر، أبو الحسن الأشعري، تحقيق الدكتور محمد السيد الجليينيد، سلسلة التراث السلفي، كلية دار العلوم القاهرة، بدون تاريخ.
- 7 - أصول الدين أبو منصور عبد القادر بن طاهر التميمي البغدادي، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1401هـ - 1981 م.
- 8 - الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، أبوبكر الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت 1407هـ - 1986 م.
- 9 - التأويل في آفاق المصطلح، عبد القادر الرباعي، دراسة منشورة ضمن مجلة عالم الفكر الكويتية، العدد 2، المجلد 31 أكتوبر 2002.
- 10 - التأويل اللغوي في القرآن الكريم: دراسة دلالية، حسين حامد الصالح، الطبعة الأولى، دار ابن حزم، بيروت، 1426 هـ.
- 11 - التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق محمد صديق المنشاوي، بدون ذكر رقم الطبعة، دار الفضيلة، بدون ذكر مكان الطبعة وتاريخه.
- 12 - تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، بدون ذكر رقم الطبعة، الدار المصرية، 1384 هـ - 1964 م.
- 13 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، بدون ذكر رقم الطبعة، دار هجر، بدون ذكر مكان الطبع وتاريخه.
- 14 - الجذوة، مجلة محكمة من إصدار المجلس العلمي الأعلى بالمملكة المغربية، العدد الأول أبريل 2013 م. مقال للعلامة مصطفى بن حمزة بعنوان: منهج الأشعري في قراءة النص.
- 15 - جمع الجوامع في أصول الفقه، تاج الدين علي بن عبد الوهاب السبكي، علق عليه ووضع حواشيه عبد المنعم خليل إبراهيم ومحمد بيضون، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1424 هـ - 2003 م.
- 16 - الحدود في الأصول، أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بدون ذكر مكان الطبع، 1999 م.

- 17 - الخطط والآثار، المقريري تقي الدين، بدون ذكر رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- 18 - سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بدون ذكر رقم الطبعة، دار إحياء الكتب العربية، بدون ذكر مكان الطبع وتاريخه.
- 19 - سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، بدون ذكر رقم الطبعة، مؤسسة الرسالة، بدون ذكر مكان الطبع، 1422هـ - 2001م.
- 20 - شرح جوهرة التوحيد، المسمى: تحفة المريد على جواهر التوحيد، الإمام البيجوري، تحقيق علي جمعة محمد الشافعي، الطبعة الأولى، دار السلام، بدون ذكر مكان الطبع : 1422هـ - 2002م.
- 21 - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الرابعة، بدون ذكر اسم المطبعة ولا مكانها، 1990م.
- 22 - صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل ابن ابراهيم البخاري بدون ذكر رقم الطبعة، دار ابن كثير، بدون ذكر مكان الطبعة 1414 هـ - 1993 م.
- 23 - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، بدون ذكر رقم الطبعة، دار الخير، بدون ذكر مكان الطبع، 1416 هـ - 1996 م.
- 24 - عثمان السلاحي ومذهبيته الأشعرية، جمال علال البختي، ط 1 سنة 2005 مطبعة أبي رقرق للطباعة والنشر الرباط.
- 25 - عقائد الأشاعرة في حوار هادئ مع شبهات المناوئين، صلاح الدين بن أحمد الإدليبي، الطبعة الأولى، دار السلام، مصر، 1429 هـ - 2008 م.
- 26 - فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، أبو الوليد بن رشد، دراسة وتحقيق محمد عمارة، بدون ذكر رقم الطبعة، دار المعارف، بدون ذكر مكان الطبع وتاريخه.
- 27 - القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، الطبعة الثامنة، دار الرسالة، بدون ذكر مكان الطبع 1426هـ - 2005م.
- 28 - قانون التأويل، أبو بكر بن العربي، دراسة وتحقيق محمد سليمان، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.
- 29 - اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، أبو الحسن الأشعري، تحقيق عبد العزيز عز الدين السيروان، الطبعة الأولى، دار لبنان للطباعة والنش، بدون ذكر مكان الطبع، 1408 هـ - 1987 م.

- 20 - مجموعة رسائل الإمام الغزالي (وهي ست وعشرون رسالة)، للإمام أبي حامد الغزالي، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، 1416 هـ - 1996 م.
- 21 - مختصر الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، بدون ذكر رقم الطبعة، مكتبة لبنان، 1986 م.
- 22 - المذهب الأشعري وأثره في التفسير، عبد الرحمان حيسي، بدون ذكر رقم الطبعة، برانت شوب مكناس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، سلسلة دراسات وأبحاث رقم 32، 2012 م.
- 23 - مشكل الحديث وبيانه، الإمام أبو بكر بن فورك، تحقيق موسى محمد علي، الطبعة الثانية، عالم الكتب، بيروت، 1405 هـ - 1985 م.
- 24 - معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر) بدون ذكر مكان الطبع، 1399 هـ - 1979 م.
- 25 - مفاتيح الغيب المشهور بالتفسير الكبير، الإمام فخر الدين الرازي، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت، 1405 هـ - 1985 م.
- 26 - المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، الإمام شمس الدين أبو الخير بن عبد الرحمان السخاوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1399 هـ - 1979 م.
- 27 - الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، القاضي أبوبكر بن الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت 1407 هـ - 1986 م.
- 28 - مشكل الحديث وبيانه، الإمام أبوبكر بن فورك، تحقيق موسى محمد علي، الطبعة الثانية، عالم الكتب، بيروت 1405 هـ - 1985 م.
- 29 - نشأة الأشعرية وتطورها، جلال محمد موسى، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1395 هـ - 1975 م.

نماذج من المتون العقدية الأشعرية المعتمدة بالغرب الإسلامي

إحكام في المضمون وتحقيق للمأمول

• ذ. عبد العلي بلامين

أستاذ التعليم العالي بجامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

وبعد:

فمن فضل الله تبارك وتعالى على الأنام، أن قيض لهم العلماء الأعلام، الناصحين المصلحين، ورثة الأنبياء، في كل عصر ومصر، ينفون عن الشريعة تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين¹، ومن هؤلاء العلماء من أقامهم الله سبحانه وتعالى في مقام تبيان عقيدة السلف وشرفهم بالمنافحة عنها؛ السادة الأشاعرة، منتهجين نهج الإمام المجتهد المجدد أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت324هـ)، وهو ما قرره القاضي عياض بقوله: «... فلما كثرت تواليه - أي الإمام أبو الحسن الأشعري - وانتفع بقوله، وظهر لأهل الحديث والفقه ذبه عن السنن والدين، تعلق بكتبه أهل السنة، وأخذوا عنه، ودرسوا عليه، وتفقهوا في طريقه، وكثر طلبته وأتباعه لتعلم تلك الطرق في الذب عن السنة، وبسط الحجج والأدلة في نصر الملة، فسموا باسمه، وتلاههم أتباعهم وطلبته، فعرفوا بذلك...»²

وقد دأب علماء المذهب الأشعري بالغرب الإسلامي منذ قرون خلت على ترسيخ المعتقد الشنّي وتحسينه بقواطع المنقول والمعقول، معتمدين مسالك تقريبية متنوعة تنشُد الإبداع وتحت العقلاء على الاتباع، وقد أسفرت جهودهم التقريبية عن وضع متون منشورة ومنظومة تبوأ مكانة رفيعة في الدرس العقدي الأشعري، وشكلت حصنا منيعا يصد مختلف الانحرافات العقدية، ويرسخ الثوابت الدينية في

1 - عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُرث هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين». أخرجه الإمام البيهقي في سننه، باب: الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث فيقول: كفوا عن حديثه؛ لأنه يغلط أو يحدث بما لم يسمع، أو أنه لا يبصر الفتيا. رقم: 20911.

2 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض بن موسى السبتي. تحقيق: علي عمر. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة - مصر، ط1: (1430هـ - 2009م). ج2، ص. (525-526).

عدد من الأقطار الإسلامية.

وعليه، فسنعمل في هذا المقال على تقريب قارئه من أبرز المتون التي أنتجتها قرائح الأعلام من أشاعرة الغرب الإسلامي وأسهمت في الارتقاء بالدرس العقدي فيه وتحصين معتقد أهله والذود عنه، وذلك في ثنایا محورین أساسین؛ نسفر في أولهما عن أهم المتون العقدية التقريبية المنشورة، ثم نبرز في المحور الآخر أهم المتون العقدية المنظومة، مما اعتمد في الدرس العقدي بالغرب الإسلامي.

أولاً: نماذج من المتون العقدية المنشورة المعتمدة بالغرب الإسلامي

ليس كل كتابة عقدية مؤهلة لتكون متناً يؤدي وظيفة التقريب والتحصين العقدي، إذ المتن العقدي عبارة عن كتابة مُركّزة مستوعبة الأحكام العقدية وفق نسقٍ مراعى مستوى المخاطب المعرفي، مُجَرّدة عن التفصيل والتدقيق في المسائل. وتكمن أهمية المتن العقدي في تمكين حافظه ودارسه من استحضار المسائل وأدلتها بيسر، ولذلك اعتبرت المتون أساساً في الدرس العقدي الأشعري، وقد برع العلماء في وضعها والعناية بها تدريجاً وتأليفاً.

وفيما يأتي أشهر المتون العقدية المنشورة المعتمدة في الدرس العقدي بالمغرب منذ قرون، مع تقريب نبذة عنها:

1 - توحيد "الرسالة" لابن أبي زيد القيرواني (ت 386هـ)³

هو عبارة عن متن عقديّ افتتح به الإمام ابن أبي زيد رسالته الفقهية المشهورة التي عرفت انتشاراً كبيراً في سائر بلاد المسلمين، وقد ألفها -رحمه الله- استجابةً لأحد الفضلاء المربين. وقد عبّر ابن أبي زيد في مقدمة رسالته عن قصده التقريبي من وضعها بقوله: "وقد فرض الله سبحانه على القلب عملاً من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات. وسأفصل ما شرطتُ لذكره باباً باباً ليقرّب من فهم متعلّميّه إن شاء الله تعالى..."⁴.

ويشتمل متنُه العقديُّ هذا على مباحث العقيدة الثلاث من إلهيات ونبوات وسمعيات؛ ذكر في ثنایا كل مبحث منها الأصول العقدية دون إغراق في جزئياتها، وهو ما يوافق قصده المذكور الذي أفصح عنه في مقدمة الرسالة.

3 - اخترنا إيراد متن الرسالة في هذا السياق لثلاثة اعتبارات؛ أحدها: أن متن الرسالة لا يتعارض مع مضامين العقيدة الأشعرية إجمالاً، وثانيها: عدم ثبوت ردّ الإمام ابن أبي زيد -رحمه الله- على من عاصره من أئمة الأشاعرة أو التنقيص من مسالكهم. ثالثها: إقبال كثير من العلماء الأشاعرة على شرح هذا المتن على نحو ما سنبسّطه إن شاء الله تعالى.

4 - الرسالة، لابن أبي زيد القيرواني. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ص. 6.

وقد حظيت رسالة ابن أبي زيد - رحمه الله - المتضمنة لعقيدته بعناية كبيرة من قبل العلماء، ومن الشروح التي وُضعت على توحيد رسالة ابن أبي زيد القيرواني:

- شرح عقيدة مالك الصغير ابن أبي زيد القيرواني، للقاضي عبد الوهاب البغدادي (ت 422هـ).
- شرح العلامة أحمد زروق الفاسي (ت 899هـ) على متن الرسالة.
- شرح توحيد الرسالة، لأبي عبد الله محمد بن قاسم جسوس (ت 1182هـ).
- شرح توحيد الرسالة القيروانية، لمحمد الطيب بن عبد المجيد بن كيران (ت 1227هـ).

2 - «المرشدة في العقائد»، لمحمد بن تومرت الموَحّدي (ت 524 هـ)

هي عقيدة صغيرة مفيدة، في صفحة واحدة، اقتصر فيها واضعها على ذكر ما يجب على المُكَلَّف العلم به من صفات الباري جلّ وعلا، وما هو مُنزّه عنه سبحانه وتعالى، ولم يتطرق فيها إلى شيء من النبوات أو السّمعيّات!

وقد حظيت «مرشدة» ابن تومرت باهتمام كبير من قبل العلماء شرحاً وتدریساً ومدحها غير واحد منهم، قال ابن النقّاش في شرحه على المرشدة موضحاً قصد ابن تومرت التّقريب من وضعها وأهميّتها: «ولما كان من جملة ما وضع (...) تقريباً لأفهام العامة، وتيسيراً على الكافة، العقيدة المختصرة المنتظمة الكلام، الحسنة النظام، المرتبطة المعاني، الموسومة بالمرشدة، بادر إلى حفظها وقراءتها جماعة الفقهاء والعلماء الأخيار....»⁵.

وقال الحافظ صلاح الدين خليل العلائي (ت 761هـ) مُنوّهاً بها: «هذه العقيدة المرشدة جرى قائلها على المنهاج القويم، والعقد المستقيم، وأصاب فيما نزّه به العليّ العظيم»⁶.

وقال التاج السبكي مُعلّقاً عليها بعدما أوردتها كاملة في طبقاته: «هذا آخر العقيدة وليس فيها ما يُنكره سُنّي»⁷.

ومن الشروح التي وُضعت على مرشدة ابن تومرت:

- شرح مرشدة محمد بن تومرت، لأبي عبد الله محمد بن خليل السكوني الإشبيلي.

5 - الدرّة المفردة في شرح العقيدة المرشدة، لابن النقّاش. الخزانة الوطنية، الرباط، المملكة المغربية، رقم: ق 283.

6 - طبقات الشافعية الكبرى، للتاج السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2: 1413هـ. ج 8، ص 185.

7 - المصدر نفسه، ج 8، ص 186.

- شرح المرشدة في العقائد، لأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الحسني (ت 895هـ).

3 - «العقيدة البرهانية» أو «السلامية»، لأبي عمرو عثمان بن عبد الله السلاجي الفاسي (ت 574هـ)

وهي عقيدة وجيزة العبارات، عظيمة النفع، عرض فيها صاحبها مباحث العقيدة كاملة، مع اعتناؤه بإيراد الحجج والبراهين العقلية، إثباتاً وترسيخاً لجملة من الأصول العقيدية.

وبدا تأثره واضحاً في هذه العقيدة بإرشاد إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، وقد نقل ابن رُشيد السبتي (ت 721هـ) في «ملء العيبة» كونها مختصراً للإرشاد⁸.

ووضع السلاجي هذا المتن تلبيةً لطلب تلميذته المرأة الصالحة «خيرون» أن يكتب عقيدةً مختصرة ومُوفيةً بالمقصود⁹.

ومن الشروح التي وُضعت على برهانية السلاجي:

- شرح العقيدة البرهانية، لأبي العزّ تقي الدين المقترح (ت 612هـ).

- المباحث العقلية في شرح معاني العقيدة البرهانية، لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن تميم اليفرنى المكناسي (ت 734هـ).

- شرح العقيدة البرهانية، لأبي عثمان سعيد بن محمد بن العقباني (ت 811هـ).

4 - عقائد الإمام لأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ):

- «العقيدة الكبرى» المسماة: «عقيدة أهل التوحيد؛ المخرجةُ بعون الله من ظلمات الجهل وربقة التقليد، المرغمةُ بفضل الله تعالى أنفَ كل مبتدع عنيد».

- «العقيدة الوسطى»، وهي اختصار للعقيدة الكبرى.

- «أمّ البراهين» (العقيدة الصغرى)، وهي أخصر من «الوسطى»، وأكثر عقائد الإمام السنوسي شهرةً.

- «عقيدة صغرى الصغرى»، وهي مختصر للعقيدة الصغرى (أمّ البراهين).

- «عقيدة صغرى صغرى الصغرى» (الحفيدة)، وهي اختصار لـ «صغرى الصغرى».

- «المفيدة»، وهي في غاية الاختصار.

8 - ملء العيبة، لابن رُشيد السبتي. تحقيق: محمد الحبيب ابن خوجة. الدار التونسية للنشر، تونس، ط: (1402هـ-1982م). ج. 2، ص. 226.

9 - انظر: جذوة الاقتباس، لابن القاضي المكناسي. دار المنصور، الرباط، المملكة المغربية، ط. 1973م. ج. 2، ص. 458.

تميّزت سلسلة متون الإمام السنوسي باحتوائها على لبّاب ما أنتجته قرائح المتكلّمين، فقد عرض فيها مؤلّفها مضامين العقيدة بأسلوب فريد، مُقَرَّباً أدلتها اليقينية، مُراعياً مدارك الناس العقلية، مع النَّأي عن التعقيد والإيهام، المفضي إلى تعطلّ الإفهام، ومع جودة التصميم، وحسن التنظيم، وبراعة التقسيم، ومُنتهجاً في صوغ هذه السلسلة الذهبية من المتون سُنّة التقريب بالتدرّج، بحسب مستوى المتلقي.

وهي سلسلة حلقاتها مُختلفة الأحجام فريدة، تولّد الكبّرَى منها الوسطى فالصّغرى فصغرى الصغرى، فصغرى صغرى الصّغرى، انتهاءً بالمُفيدة.

ولقد حظيت هذه المتون العقديّة باهتمام كبير من لدن العلماء وطلبة العلم، تدرّساً وشرحاً وحفظاً، وأول من اعتنى بتدريسها وشرحها مؤلّفها الإمام السنوسي، فشرح - رحمه الله - العقيدة الكبّرَى، والعقيدة الوسطى، وأم البراهين، وصغرى الصغرى.

5 - عقيدة أهل الإيمان، لسيدى عبد القادر بن علي الفاسي (1091هـ)

عقيدةٌ وجيزةٌ سرد فيها العلامة سيدى عبد القادر الفاسي ما يجب على المسلم العلم به من أصول الدين، بحيث لا يُعذر بجهله، مراعيّاً فيها مستوى المُخاطَبين، فخطّها بأسلوب سهل متين، وامتنع فيها عن بسط الأدلة والبراهين، وقد بيّن مؤلّفها - رحمه الله - في آخرها بإيجاز قصده منها، ومنهجه فيها، بما نصه: «... فهذا سرد عقيدة أهل الإيمان، موضوعاً لمن أراد تعليمها للنساء والصّبيان، مَصُونَةٌ عن شُبّه أهل الزّيغ والخِذلان، خاليةٌ عن تقرير الدليل والبرهان، قابلها الله بالقبول والرضوان...»¹⁰.

فاستجاب الله سبحانه دعوته، فتلقّى الناس عقيدته بالقبول، وجنبها سبحانه وتعالى الأُفُولَ، وانتشرت بين خاصّة الناس وعامتهم وتحصّل منها المأمول.

وقد شرح هذا المتن نجل واضعه العلامة أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (ت 1096هـ)، وشرحه كذلك العلامة أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي (ت. 1164هـ)، وهو الشرح الموسوم بـ: «تحفة الوارد والصادر في شرح العقيدة التوحيدية للجد سيدنا عبد القادر»¹¹.

ثانياً: نماذج من المتون العقدية المنظومة المعتمدة في الغرب الإسلامي

دأب أشاعرة الغرب الإسلامي منذ قرون على وضع منظومات تقرّيبية لأصول الدين، لتيسير حفظ مضامين العقيدة، وتسهيل استحضار مسائلها مع أدلتها اليقينية. وارتقت بعض المنظومات لعرض دقيق المسائل العقدية والكلامية ومناقشة مقالات المخالفين فيها، وهو ما يتأتّى به ترسيخ المعتقد السني وتحسينه.

10 - عقيدة أهل الإيمان، للشيخ سيدى عبد القادر الفاسي. تحقيق: نزار حمادي، دار الإمام ابن عرفة، تونس، ص. 34.

11 - من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، (1440هـ-2019م).

وللمنظومات العقدية مكانة خاصة في الدرس العقدي بالغرب الإسلامي، وحظي كثير منها بعناية خاصة من قبل العلماء شرحاً وبياناً.

ونذكر من هذه المنظومات التقريبية ما يأتي:

1 - التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد، لأبي الحجاج يوسف بن موسى الضرير (ت 520هـ).

هذا النظم من صنف الألفيات العلمية، يقع في أربعة وسبعين وثلاثمائة وألف (1374) بيت، ويمكن اعتباره أقدم نظم عقديّ تقريبيّ على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري وصل إلينا، وأهم وأفيد ما نُظِم مُستوعباً جميع مباحث العقيدة المشهورة، مع براعة في نظم أدلة المسائل، وطرائق الحجاج، وإتقان في تقسيم أبوابه؛ إذ جعل نظمه هذا في تسعة وتسعين (99) باباً تيمناً بعدد أسماء الله الحسنى، قال رحمه الله:

أبوابه كعدد الأسماء للملك العليّ ذي الآلاء¹²

وقد نظمه أبو الحجاج الضرير بأيسر الطرق التي يتأتى بها التعقل والحفظ، قال - رحمه الله -:

مُضْمَنٌ عِلْمَ أَصُولِ الدِّينِ بِأَقْرَبِ الطُّرُقِ فِي التَّبَيِّنِ
نَظْمُهُ لِلْحِفْظِ وَالتَّفْهَمِ رَجَاءُ رِضْوَانِ الْإِلَهِ الْأَكْرَمِ¹³

وقد عدّه بعض الباحثين نظماً لكتاب الإرشاد لإمام الحرمين¹⁴، والمتأمل في ثناياه، السابراً أغواره، يُلْفِي ناظمه الضرير متفرّداً بمسائل من اختياراته، لم يتعرّض لها الجويني في إرشاده، مع عدم إنكار ما يبدو فيه من تأثر بالكتاب المذكور الذي عرّف شهرة واسعة زمان المؤلف.

2 - كفاية المرید في عقائد التوحيد، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن عبد الله الزواوي (ت 884هـ).

عبارة عن منظومة عقدية صوفية من خمسة وخمسين وثلاثمائة (355) بيت، شملت أصول العقيدة مع أدلتها العقلية والسمعية، وأصول الأخلاق والسلوك من معين السادة الصوفية المحلّ بالعلوم المحمدية، فإن طلب العلم بمعزل عن الاهتمام بتزكية النفوس وتهذيب السلوك يورث جفاء فيه وقسوة في القلوب، واستعلاء على الناس، ولذلك قال عبد الله ابن المبارك: «نحن إلى قليل من الأدب أحوجُّ منا إلى كثير من العلم»¹⁵.

12 - التنبيه والإرشاد، لأبي الحجاج يوسف الضرير، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ص. 47.

13 - التنبيه والإرشاد، ص. 46.

14 - انظر: فهرس الكتب المخطوطة في العقيدة الأشعرية، لخالد زهري، وعبد المجيد بوكاري، ط. 1: (1432هـ-2011م). ج. 2، ص. 519.

15 - الرسالة القشيرية، لعبد الكريم بن هوزان القشيري، تحقيق: عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة. ج. 2، ص. 447.

قال شارح هذه المنظومة الإمام السنوسي في وصفها: «...منظوم مُشتمَلٌ على طريقي هداية الخواص والعوام؛ لأنه قد ضمّ فيه إلى حلاوة النظم المستميلة للطباع، تقرير الأدلة البرهانية للعقائد على التمام، ثم وشّحها بخطابات تصوفية، تهزُّ النفوس النائمة لتعظيم جناب الحق، ويدخل بها الضعيف مع القوي في سلك الانتظام، وتلك سنة الله تعالى في تقرير الأدلة في كتابه العزيز، ثم سنة مصطفىاه الرسول، وما أبركها من طريقة، وأنصحها من دلالة..»¹⁶. وكفى بذلك حُجّة على أهميتها وقيمتها العلمية.

3 - توحيد منظومة «المرشد المعين على الضروري من علوم الدين»، لأبي محمد عبد الواحد ابن عاشر (ت 1040هـ).

اشتمل نظم العلامة ابن عاشر على ما يجب على المكلف تعلمه ولا يسعُه تركه من العقائد والفقه والتصوف، ويقع في سبعة عشر وثلاث مائة (317) بيت، وهو من أشهر المتون المقرّبة لعرى الدين الثلاث. ويقع قسم العقيدة من هذه المنظومة في اثنين وأربعين (42) بيتاً جمعت مباحث أصول الدين الثلاث من إلهيات ونبوات وسمعيات، مع براعة في نظم البراهين والحجج على مسائلها.

وقد اشتهر قسم التوحيد هذا شهرة المتن المتضمن له، فخصّه كثير من العلماء بعناية كبيرة، فمنهم من أفرد قسم التوحيد منه بالشرح كالعلامة أبي عبد الله محمد بن قاسم جسوس (ت 1182هـ) وغيره، ومنهم من تعرّض لذلك عند شرحه المتن كاملاً كالشيخ أبي عبد الله محمد ميارة الفاسي (ت 1072هـ) وغيره.

4 - إضاءة الدُّجَنَةِ بعقائد أهل السُّنَّة، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد المقرّي (ت 1041هـ).

منظومة عقديّة شاملة مفيدة، تقع في سبعة وستين وأربع مائة (467) بيت، وقد عرفت شهرة واسعة بالشرق والمغرب، ودرّسها ناظمها بمصر وبمكة وبالشّام، أفصح عن ذلك في «نفح الطيب» بقوله:

سمّيتها «إضاءة الدُّجَنَةِ» وقد رجوت أن تكون جُنة
وبعد أن أقرأتها بمصر ومكة بعضاً من أهل العصر
درّستها لما دخلت الشّاما بجامع في الحُسْن لا يسامى¹⁷

5 - مَرَاوِدُ الْمُعْتَمِدِ فِي مَقَاصِدِ الْمُعْتَقَدِ، لأبي حامد محمد العربي الفاسي الفهري (ت 1052هـ).

هو نظم مستوعب جميع مباحث العقيدة المشهورة، يقع في خمسة وأربعين وست مائة (645) بيت، حاول فيه ناظمه تقريب المسائل العقدية مع التنبيه على مواطن الخلاف في الفرعية منها وإلى ذلك أشار بقوله:

16 - المنهج السديد في شرح كفاية المريد، لأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، دار الهدى، ص. 22.

17 - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لشهاب الدين المقرّي. تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ج. 2، صص. (424-425).

قصدت فيه البسط والتسهيل ومع ذا لم أقصد التطويلا

وأحجم فيه عن ذكر مقالات المخالفين في الأصول، قال - رحمه الله -:

وصننته عن التعرض لما له المذهب الضلالة انما

وأرشد العلامة سيدي العربي الفاسي في آخر نظمه من رام الاستزادة من الأدلة والبراهين اليقينية المتعلقة بمسائله إلى الاطلاع على نظمه الذي أفرد في ذلك وسماه بـ «تلقيح الأذهان بتنقيح البرهان على مقاصد المعتقد من مراصد المعتمد».

أشار - رحمه الله - إلى ذلك بقوله:

ومن يرد حفظ الأدلة ففي «تلقيح الأذهان» لنا قدر يفي

وختاما: نخلص في ضوء ما تقدم إلى ما يأتي:

- اعتمد الدرس العقدي بالغرب الإسلامي منذ قرون مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري، الذي هو اختيار المغاربة العلمي والحضاري منذ قرون، والذي أضحى ثابتا من الثوابت الدينية للأمة المغربية.
- تميزت المتون المقررة في الدرس العقدي بالغنى والإحكام في المضمون، وبالتنوع في مسالك التقريب وذلك بحسب مستوى الفئة المستهدفة، وقد أسهم تدريسها من قبل علماء المغرب في الارتقاء بالدرس العقدي الأشعري وتحصين معتقد المغاربة والذود عنه.
- تميز الدرس العقدي بالغرب الإسلامي باعتماد متون من وضع علماء بلغوا شأوا كبيرا في العلم، ولعلماء المغرب إسهام كبير في ذلك، وفي تنقيح وتلقيح هذه المتون، وهو ما أسفر عن شروح وحواش نفيسة؛ وضحت الغامض، وكملت الناقص، واستدركت الهفوات، وأضافت تحقيقات ونكت ولطائف، وهي حصيلة تدريسهم لهذه المتون ومناقشاتهم ومباحثاتهم المتعلقة بمضمونها.
- يعسر حصر المتون المعتمدة في الدرس العقدي بالغرب الإسلامي، فإن ذلك يتطلب استقراء وتتبعاً كرونولوجيا دقيقاً، كما أن الدرس المذكور لم يقتصر في التلقين على المتون فقط، فقد اعتمد كذلك الشروح والحواشي العقدية، وعليه فإن اقتصرنا في هذا المقال على نماذج من المتون هو من أجل تبيان أهميتها وعدم إهمالها، والاستفادة منها في الدرس العقدي المعاصر، وكذا شحذ همم الباحثين للاعتناء بها تحقيقا ودراسة، وسبر أغوار موضوع «الدرس العقدي بالمغرب» من مختلف متعلقاته العلمية والتاريخية والاجتماعية.

المذهبية الأشعرية وتحسين العقيدة الإسلامية

• ذ. عبد الصمد بوذياب

أستاذ باحث بوزان

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابه أجمعين.

عرّف الفكر العقدي الإسلامي تحديات عديدة وإشكالات كثيرة، فرضت على الصحابة والتابعين وتابعيهم من العلماء مدافعتها وتحسين عقائد المسلمين منها. وقد بلغت تلك التحديات ذروتها في القرن الثالث الهجري، حين تطورت البدع من آراء شخصية إلى مؤسسات فكرية مذهبية، كما هو الحال مع المعتزلة الذين نسجوا نسقاً من الشبهات، استطاعوا أن يخدعوا بها كثيراً من الناس، لولا أن بعث الله على رأس المائة الثالثة من يجدد للأمة أمر عقيدتها، ويحفظ لها فكرها وتدينها، فكان أن أحيى الله بالإمام أبي الحسن الأشعري السنة، وأمات به البدعة.

وقد سن الإمام أبو الحسن الأشعري باستدلاله النقلي والعقلي سنةً منجية، تليقها الأمة بالقبول، واعتمدها علماء الملة في الحجاج العقدي جيلاً عن جيل، ينفون بها عن العقيدة فكر الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، كما سنرى في محوري هذه الورقة البحثية، إن شاء الله رب العالمين.

المحور الأول: الإمام أبو الحسن الأشعري وتحسين المذهب السني.

إن المتأمل في التاريخ الفكري للمسلمين، سيلحظ أن إثارة الخلاف العقدي بدأ بنزول الوحي المحمدي. فكان النبي عليه الصلاة والسلام يعالج إشكالاتها بالإجابة عنها أحياناً، وبالنهي عن الخوض فيها وعن تكلف ما لا يعني في الاعتقادات والعمليات في أحيان أخرى.¹ غير أن موت النبي صلى الله عليه وسلم وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، واتباع بعض الناس ما تشابه من القرآن والسنة؛ جعل الصحابة أمام تحديات

1 - للمزيد: ينظر الشاطبي في الموافقات، ص 270.

كثيرة، وإشكالات جديدة ومتجددة، فرضت عليهم معالجة آثارها وتحصين عقائد المسلمين تجاهها،² بعد أن وجدوا أنفسهم أمام أسئلة عن موضوع القدر، وموضوع الجبر، والتكفير بالذنوب، وغير ذلك من الإشكالات التي اجتهدوا في العمل على تحصين عقيدة الأمة منها، بالحجاج العقلي والنقلي لمن رأوا صدقه، وبالزجر لمن ظهر لهم خبث طويته.³

وعلى منهجهم الحجاجي المنطقي⁴ سار التابعون من بعدهم، وكان للكلام حضور أكبر في منهجهم. فكان عمر بن عبد العزيز أول المتكلمين منهم، وكذلك كان زيد بن علي زين العابدين، والحسن البصري، وغيرهم من الذين تصدوا لهذا الأمر من كبار التابعين.⁵

وكذلك فعل أتباعهم والتابعون لهم، مع تزايد الإشكالات ودخول كثير من أصحاب الديانات الأخرى في الإسلام، «وهم يحملون في أذهانهم أثقالاً من شبهات أديانهم وهرطقاتها، فلم يكن بد من الإصغاء إلى شبههم ومشكلاتهم، ورد غائلتها من عقولهم بالمنطق العلمي».⁶

غير أن فتنة الاعتزال التي طل قرنهما مع واصل بن عطاء (ت 131هـ)، وطورها أبو هذيل العلاف (ت 231هـ)، وانتشرت نارها حتى وصلت شظاياها للمغرب؛ كانت هي التحدي الأبرز أمام أهل السنة وعلمائهم من أهل الفقه والحديث، الذين لم يسعفهم منهجهم النقلي في تحصين العقيدة الإسلامية من الفكر الاعتزالي؛ لأنه كان قائماً على قول إقناعي، لا على قانون كلامي.⁷ إلى أن من الله بالإمام أبي الحسن الأشعري وأخرجه من بين المعتزلة، فنقض غزلهم ودحض شبههم، وانتصر «لطريقة السلف، ونصر مذهبهم على قاعدة كلامية، فصار ذلك مذهباً منفرداً»⁸، انطفاً به لبيب كل الفرق البدعية، واجتمع على الأشعرية عامة أهل السنة والجماعة، ولم تقم للفكر الاعتزالي قائمته التي كان عليها منذ ذلك اليوم.⁹

لقد عدد الإمام أبو الحسن الأشعري طرائق التحصين الداخلي، ونوع أساليب التدافع الخارجي، بتنوع منافذ الفتن، وتعدد الواحات التي نبتت فيها، فناظر من يحتاج للمناظرة، وعلم ودرس من يحتاج

2 - ينظر في أسباب الخلاف العقدي في زمن الصحابة: ابن خلدون، المقدمة، ص 444 - 445.

3 - للمزيد ينظر: جلال الدين السيوطي، في صون المنطق والكلام عن فني علم المنطق والكلام، ج 1/ ص 50-51. والشهرستاني، الملل والنحل، ص 110. والباركفوري، تحفة الأحوذ بشرح جامع الترمذي، ج 6/ ص 289.

4 - استعمل الصحابة في تحصين عقيدة المسلمين الحجاج العقلي والمنطقي، وفي مقدمتهم: عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر، وعلي بن أبي طالب الذي وصفه البغدادي بأنه أول المتكلمين. ينظر: الفرق بين الفرق، ص 397.

5 - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 397.

6 - سعيد رمضان البوطي، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، ص 27-28.

7 - الشهرستاني، الملل والنحل، ص 40.

8 - نفسه.

9 - ابن عساكر، تبين كذب المفتري، ص 26.

التدريس.. ثم دبّج كل ذلك في مؤلفاته، التي وإن ضاع أكثرها؛ إلا أن ما بقي منها وما تناقله تلامذته وحفظه علماء المذهب منها، كافٍ في الإنشاء عن محتواها، وفي استمرار النسق المنهجي الحجاجي وفقها.

المحور الثاني: علماء المذهب الأشعري وتحصين العقيدة الإسلامية.

أبت سنة التدافع الفكري والمذهبي... إلا أن تطال المجال العقدي في كل الأزمنة والأمكنة. فرغم أن المبتدعة بُهتوا أمام أبي الحسن الأشعري، وخنسوا لقوة حججه الشفهية والكتابية، العقلية والنقلية؛ إلا أن آثار تلك البدع استمرت في الظهور هنا وهناك، فاحتاجت الأجيال اللاحقة إلى من يعيد لها تجديد عقدها، ويحصن إيمانها ضد الرواسب الداخلية، والبدع الخارجية، فكان أن تصدر لذلك تلامذة الإمام الأشعري، وتلامذتهم شرقاً وغرباً.

وقد شكل الإرث المذهبي لأبي الحسن الأشعري مصدر إلهام في استمرار المذهبية الأشعرية، وتنوع أساليب حجاجها، فبنى التلاميذ من تراث الإمام ومن أصول مذهبه، حصناً منيعاً لرد الشبهات، ومستنداً قوياً ضد «شبه المعتزلة ومن بعدهم من الملحدة والرافضة»¹⁰، وغيرهم من أهل الممل والنحل، الذين بقيت بدعهم عاجزة على اختراق حصون المذهبية الأشعرية، «القائمة على العقيدة في ثوبها المأثور عن الصحابة والتابعين»¹¹.

وقد توسل الأشاعرة لذلك بمسلكين أساسيين. يقوم الأول على التحصين الداخلي، وتقوية المناعة العقدية الذاتية؛ ويقوم الثاني على التحصين الخارجي، ورصد الشبهات وفضحها ودحرها. فقام الأشاعرة -على سنن إمامهم- بتنويع المقاربات، وجعلها تناسب مختلف المستويات الفكرية والاجتماعية، من مثقفين وعوام، ورجالا ونساء، كبارا وصبياناً...

فمن جهودهم ضمن المسلك الأول عملهم على تحصين عقائد النساء، وتأليف عقائد خاصة بهذه الفئة، كما هو الحال مع عقيدة «البرهانية»، التي أملاها الإمام السلاجي (ت594هـ) على طالبتها السيدة خيرونه؛ وعقيدة «صغرى صغرى الصغرى»، المشهورة بـ «عقيدة النساء»، التي كتبها الإمام السنوسي (ت895هـ) لبناته ونساء عائلته؛ قبل أن يتم تعميم العقيدتين، ونشرهما بين العامة والخاصة. فكانت الأولى سبباً في تحصين أهل فاس من التجسيم، والثانية مدخلاً لتقريب العقيدة من عموم المسلمات والمسلمين.¹²

10 - ينظر: إبراهيم بن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق، محمد الأحمد، ج 02/ ص 94.

11 - ينظر: عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، ص 48-50. وابن حوقل، صورة الأرض، ص 94. والاستبصار في معرفة الأمصار، ص 195. والشهرستاني، الملل والنحل، ج 1/ ص 59. والبيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي، ج 01/ ص 124 وما بعدها، وص 219 وما بعدها، وص 373 وما بعدها.

12 - للمزيد ينظر: كتاب العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية، الإمام السلاجي، مع شرح العقيدة البرهانية، تحقيق نزار حمادي. والمباحث العقلية في شرح معاني العقيدة البرهانية، للحسن اليفريني، تحقيق جمال علال البختي. وعثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية، جمال علال البختي.

ومن أعمالهم ضمن هذا المسلك أيضا، جهودهم في تحصين عقيدة العوام، وتنقيتها من الرواسب، كما هو الحال مع الإمام السكوني - رحمه الله - في كتابه: «لحن العامة والخاصة في المعتقدات»¹³؛ الذي عمل فيه على «تأطير المجتمع بأسس العقيدة الأشعرية، وتحليل عقل وإيمان العامة والخاصة مما تبقى من آثار المذاهب»¹⁴ البدعية بأسلوب سلس، جمع فيه بين العمق في التأصيل، والتقريب والوضوح في المعنى.

ومن هذا المسلك أيضا، عملهم على تحصين عقائد الناشئة، من خلال مقدماتهم العقدية للكتب التعليمية الفقهية، كما في: «الرسالة» لابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ)، و«المرشد المعين» لابن عاشر (ت1040هـ)، وغيرهما من الأعمال، التي صرح مؤلفوها بأن المقصد منها هو تحصين عقيدة الصبية، وتعليم التوحيد لصغار التلاميذ والمبتدئين.

ومن هذا أيضا، جهودهم في صون العقد العام من الغوغائيين، كما في جواب ابن رشد لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين، عما قيل عن أهل السنة الأشاعرة من تشويش... وتأكيدهم بأنهم «قاموا بنصر الشريعة، وأبطلوا شبه أهل الزيغ والضلالة، وأوضحوا المشكلات، وبينوا ما يجب أن يدان به من المعتقدات»¹⁵.

ومن جهود علماء المذهبية الأشعرية في المسلك أيضا، عملهم على تحصين عقائد الباحثين وطلبة العلم من الغلو والتشدد، كما هو الحال مع ما كتبه أبو سالم العياشي (ت1090هـ) في مؤلفه: «الحكم بالعدل والإنصاف...»، حيث وجه فيه الطلبة، بمنع امتحان الناس في عقائدهم، ومنع «التجسس على عقائد من ظاهره الإسلام»¹⁶. وكذلك فعل الإمام المسناوي شيخ الجماعة بفاس (ت1136هـ)، في كتابه: «تنزيه ذوي العناية والعرفان من عقائد أهل الزيغ والخذلان»، الذي أبان فيه للذين شنعوا على المختلفين معهم في مسائل عقدية جزئية، أن الخلاف مذموم فقط في أمهات المسائل وأصول الاعتقاد، أما غير ذلك من أوجه الخلاف في مسائل العقيدة الجزئية فلا يضر¹⁷.

13 - المتداول من الكتاب، هو الجزء المسمى بـ «المختار من لحن العامة والخاصة في المعتقدات»، تأليف أبو علي عمر بن محمد بن خليل السكوني المالكي، الذي أصدرته شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1426هـ/2005م.

14 - «علم الكلام ولحن العوام»، خالد زهري، مجلة الإبانة، العدد المزدوج 2-3، ص: 77. ومما عالجته في الكتاب، قول بعض العوام: «الله أكبر، بزيادة الألف»، «الله يرضى عنك»، «هذا زمن سوء»، «يا حليم لا يعجل»، «يُعطي الفول لمن ليس له أسنان». للمزيد، ينظر: المختار من لحن العامة والخاصة في المعتقدات، للسكوني. وعبد الصمد بوذياب، النقد العقدي عند علماء الغرب الإسلامي: الإمام السكوني أنموذجا، مجلة الحضارة الإسلامية، عدد 02، ديسمبر 2019م.

15 - للاطلاع على سياق الكلام وتماه، ينظر: مسائل أبي الوليد ابن رشد، ج1/ ص 716-718. وفتاوى ابن رشد، ج2/ ص 943-945.

16 - «الحكم بالعدل والإنصاف»، أبو سالم العياشي، ج 01/ ص 147.

17 - ينظر: «تنزيه ذوي العناية والعرفان من عقائد أهل الزيغ والخذلان»، للإمام المسناوي، تحقيق عبد الصمد بوذياب، ص 155 وما يليها.

أما المسلك الثاني القائم على رصد الشبهات الخارجية، وتحصين معتقد المسلمين منها، ببيان تهافتها، والعمل على كشف تلبساتها، فجهودهم فيه كثيرة ومتنوعة، لا يخلو أي كتاب عقدي منها.

فبالإضافة إلى ما كتب عن الشبهات الخارجية بشكل عام، أنتجت المذهبية الأشعرية أعمالاً خاصة بغلق منافذ بعينها، بعد أن لاحظت تسرب البدع منها، كما هو الحال مع الإمام السكوني (ت 717هـ) في تأليفه: «التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزال في تفسير الكتاب العزيز»، ورده فيه على الفرق التي كان حضورها قويا، وكانت آراؤها منتشرة بين الناس في زمانه، كأفكار إخوان الصفا والفلاسفة، وغيرهم «من رؤوس الملحددين، والمدلسين للدين، والمجانبيين لطريق الإسلام والمسلمين»¹⁸، الذين أبان خوار منهجهم، وتساقط أدلتهم، مع التركيز أكثر على بدعة الاعتزال، التي بث الزمخشري عقائدها في ثانيا كتابه «الكشاف»، الذي أعجب به اللغويون، وأهل البيان، وكانوا «يرجعون إليه، على أنه نسيج وحده في طريقته البلاغية الإعجازية، وفي غوصه على دقائق المعاني، وحسن إبرازها، على طريقة علمية سائغة، بتحليل التركيب، وإبراز اختصاصه واعتباراته»¹⁹. فكان لا بد من تنبيه غير المختصين، بما أودع الزمخشري في «الكشاف»، من سموم عقدية خفية.²⁰

ومن جهودهم في هذا المسلك أيضا، عمل القاضي عياض (ت 544هـ) في كتابه: «الشفاء»، الذي تصدى فيه لخطورة المهدوية، والخلط بين النبوة والكهانة، وما يتبع ذلك من ادعاء العصمة.²¹ بالإضافة إلى تحصين عقائد المسلمين، من: أصحاب الإثنية، «والمناوية»، وأشباههم من الصابئين والنصارى والمجوس، والذين أشركوا بعبادة الأوثان أو الملائكة أو الشياطين أو الشمس أو النجوم أو النار، أو أحد غير الله من مشركي العرب، وأهل الهند والصين والسودان، وغيرهم ممن لا يرجع إلى كتاب، وكذلك القرامطة وأصحاب الحلول والتناسخ من الباطنية..²²

خاتمة:

إن المتأمل فيما قدمه الإمام الأشعري والأشعرية - عموما - من جهود كبيرة، وأعمال جلييلة في صون العقيدة الإسلامية، وتحصين الأمن الفكري والعقدي للمسلمين، يدرك بجلاء أن نجاح هؤلاء الأعلام

18 - المختار من كتاب لحن العامة والخاصة في الاعتقاد، ص 59.

19 - مقارنة بين تفسير الزمخشري وتفسير ابن عطية، دعوة الحق، العدد 119.

20 - التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزال في تفسير الكتاب العزيز، السكوني، ج 01/ ص 183-184.

21 - للمزيد، ينظر: تاريخ ابن خلدون، ج 06/ ص 307-311. و«المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، لعبد الواحد المراكشي، ص 146 وما يليها. و«الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، لأحمد الناصري، ج 02/ ص 104. و«القاضي عياض بين العلم والسياسة»، مقال للدكتور عبد الهادي التازي، بمجلة المناهل، عدد 19. ومقدمة الشيخ محمد بن تاويت الطنجي على ترتيب المدارك، ص 17 (يز).

22 - الشفا مع حاشية الشمني، (2/ 282).

في تحصين العقد الإسلامي، والوقوف ضد كل الرياح البدعية؛ هو نتيجة إخلاصهم لله أولاً، ثم سلامة منهجهم، وصحة عقيدتهم القائمة على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ذلك أن الدارس للتاريخ العقدي والمتأمل فيه، يستشعر بلا شك مدى المخاطر التي كانت ستحل بالمسلمين عقدياً؛ لولا أن الله قيض للأمة هؤلاء الأعلام، الذين رسموا للأمة منهجية حجاجها، وبينوا لأهل السنة أصول استدالاتها العقلية والنقلية.

المصادر والمراجع

- 1 - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، مع حاشية «مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء»، أحمد الشمي، دار الفكر، 1409هـ / 1988م.
- 2 - ابن تاووت الطنجي، مقدمة ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض، ص "ط"، منشورات وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية، مطبعة فضالة - المحمدية، ط. 01.
- 3 - ابن حوقل. صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، 1992م، بدون طبعة.
- 4 - ابن عساكر، تبين كذب المفترى، مطبعة التوثيق - دمشق، 1347هـ.
- 5 - أبو سالم العياشي، الحكم بالعدل والإنصاف الرافع للخلاف فيما وقع بين بعض فقهاء سلجاسة من الاختلاف في تكفير من أقر بوحداية الله وجهل بعض ماله من الأوصاف، تحقيق عبد العظيم صغيري، وزارة الأوقاف المغربية، 1436هـ / 2015م.
- 6 - أبو عبد الله السكوني، أربعون مسألة في أصول الدين، تحقيق: يوسف احنانا، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط. 01، 1993م.
- 7 - أبو منصور عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، دار السلام، ط. 01، 1431هـ / 2010م.
- 8 - أحمد الطيب (شيخ الأزهر)، «نظرات في الفكر الأشعري»، منشورات مجلس حكماء المسلمين، دار القدس العربي - القاهرة، ط. 02، 1437هـ / 2016م.
- 9 - أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري / محمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء، 1418هـ / 1997م.
- 10 - الإمام السلاحي، العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية، تحقيق: نزار حمادي، مؤسسة المعارف - بيروت - لبنان، ط. 01، 1429هـ / 2008م.

- 11 - الإمام المسناوي الدلائي، «تنزيه ذوي العناية والعرفان من عقائد أهل الزيغ والخذلان»، تحقيق: عبد الصمد بوذياب، دار الفتح، ط. 01، 1441هـ / 2020م.
- 12 - البطاوي محمد المكي، «شرح أم البراهين للإمام السنوسي»، إخراج وتعليق: محمد أمين السماعيل، بدون تاريخ.
- 13 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، مطبعة فضالة- المحمدية- المغرب، ط. 01، 1965م.
- 14 - جلال الدين السيوطي، في صون المنطق والكلام عن فني علم المنطق والكلام، تحقيق: علي سامي النشار وسعاد علي عبد الرزاق، مجمع البحوث الإسلامية، السنة الأولى، بدون طبعة.
- 15 - جمال البختي، عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية، وزارة الأوقاف المغربية، ط. 01، 2005م.
- 16 - سعيد رمضان البوطي، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر - دمشق ودار الفكر - بيروت، ط. 12، 1435هـ / 2014م.
- 17 - الشاطبي، الموافقات، دار الكتب العلمية، ط. 02، 2009م.
- 18 - الشهرستاني. الملل والنحل، تحقيق: عادل أحمد إبراهيم، مكتبة فياض - المنصورة، ط. 01، 1434هـ / 2013م.
- 19 - عبد الصمد بوذياب، النظر المقاصدي وأثره في تدبير الاختلاف العقدي، دار الكلمة، ط. 01، 2019م.
- 20 - عبد الصمد بوذياب، النقد العقدي عند علماء الغرب الإسلامي: الإمام السكوني أنموذجا، مجلة الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة وهران - الجزائر، المجلد العشرون، العدد الثاني، ديسمبر 2019م.
- 21 - عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت: حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، ط. 01، 1403هـ / 1983م.
- 22 - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عناية الدكتور صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية - بيروت، ط. 01، 1426هـ / 2000م.
- 23 - عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر - بيروت، ط. 02، 1408هـ / 1988م.
- 24 - علم الكلام ولحن العوام، خالد زهري، مجلة الإبانة، عدد شعبان 1435هـ - يونيو 2015م.

- 25 - الفقيه المنوني، ورقات عن حضارة الموحدين، كلية الآداب بالرباط، ط. 02، 1416هـ / 1996م.
- 26 - لسان الدين ابن الخطيب. «الإحاطة في أخبار غرناطة»، دار الكتب العلمية - بيروت، ط. 01، 1424هـ.
- 27 - المباركفوري، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- 28 - المختار من لحن العامة والخاصة في المعتقدات، أبو علي عمر السكوني، شركة دار المشاريع، ط. 01، 1426هـ / 2005م.
- 29 - مسائل أبي الوليد ابن رشد (الجد)، تحقيق: محمد الحبيب التجكاني، دار الجيل - بيروت ودار الآفاق الجديدة - المغرب، ط. 02، 1414هـ / 1993م.

صلة العقيدة الأشعرية بما كان عليه السلف

• د. محمد أرازو

أستاذ باحث بتطوان

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين، وبعد:

لقد مر عبر تاريخ الأمة الإسلامية علماء أجلاء، خدموا هذا الدين بكل ما أوتوه من علم وحكمة، ومن بين هؤلاء الأعلام: الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله، إمام أهل السنة، الذي تولى راية الدفاع عن العقيدة الإسلامية، والرد بها إلى منهج سلف الأمة، بعدما زاغت الأفهام عن جادة الصواب، فهو لم يبدع قولاً، ولم ينشئ مذهبا جديداً، وإنما نافح عن العقائد الإيمانية، بإيراد الحجج، ودفع الشبهات، جمعاً بين صحيح المنقول، وصريح المعقول، فجاء منهجه منهجاً صحيحاً سليماً متماسكاً، ارتضاه أكابر علماء الأمة، بغض النظر عن مجالهم الجغرافي، أو ثقافتهم العلمية، أو مذاهبهم الفقهية، لكون هذا الفكر فكراً وسطياً، لا غلو فيه ولا تطرف، لا إفراط فيه ولا تفريط، حفظ للناس إيمانهم وكرامتهم، فما كفر بمجرد ارتكاب الذنب والمعصية، ولا ألغى الأعمال عن الاعتبار، يرد التجسيم والتشبيه، وينكر التعطيل، يزاوج بين ما صرح به النقل الصحيح، وما وافقه العقل الصريح، فالعقل خادم النقل والنقل مرشد العقل.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن المذاهب العقدية السنية ما هي إلا مناهج لتوجيه النصوص العقدية من الكتاب والسنة، وفق قواعد التنزيه وضوابط التأويل، وحمل المتشابه منها على المحكم، مع الإيمان بكل ما أخبر به الله تعالى في كتابه، أو صح على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

وإذا تقرر هذا، فإنه عند حديثنا عن العقيدة الأشعرية أو غيرها، لا يعني أن للأشعرية عقيدة خاصة بهم، بل العقيدة واحدة؛ أصولها متحدة بلا خلاف، فكل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وصدق بذلك تصديقاً جازماً، فهو مؤمن، ومن هنا نعلم أن كل هذه المذاهب العَقَدِيَّة السنية الموجودة الآن: أشاعرة وماتريدية وحنابلة، كلهم يدخلون تحت مسمى أهل السنة والجماعة.

وسيتناول المقال المحاور الآتية:

المحور الأول: هل الأصول الاعتقادية الأشعرية تخالف أصول أهل السنة؟

إن الحديث عن أصول عقائد أهل السنة يعتبر أمراً ضرورياً لا غنى عنه، قبل الخوض في جزئيات ما يترتب عليه من ائتلاف أو اختلاف في وجهات النظر، وإنني إذ أتحدث عن أصول العقائد؛ أؤكد أن عقيدة أهل السنة والجماعة واحدة غير متعددة، ولا مختلفة في أصولها الأساسية وقواعدها الكلية، وأن الخلاف الواقع بين طوائفها، إنما هو اختلاف منهج وتوجيه، أو هو اختلاف في الجزئيات لا الكليات، وهذا يعد أمراً متفقاً عليه بين جميع المحققين من علماء أهل السنة سلفاً وخلفاً، كما سأبين فيما يأتي -إن شاء الله تعالى-.

وكما لا يخفى، فإن المقصود بأصول اعتقاد أهل السنة، -أصول الدين وأركانه وأسسها، التي من خرج عنها خرج عن جنس أهل الملة-؛ لذا اهتم كبار علماء الأمة ببيانها والعناية بتفصيلها، كما فعل الإمام أبو منصور البغدادي رحمه الله في صدر كتابه (الفرق بين الفرق)، حيث قال: «قد اتفق جمهور أهل السنة والجماعة على أصول من أركان الدين، كل ركن منها يجب على كل عاقل بالغ معرفة حقيقته، ولكل ركن منها شعب، وفي شعبها مسائل اتفق أهل السنة فيها على قول واحد، وضللوا من خالفهم فيها». وقد أوصل تلك الأصول المتفق عليها إلى خمسة عشر أصلاً، مفتتحاً ذلك بقوله: «وأول الأركان التي رأوها من أصول الدين: العلم بحدوث العالم... وقد ختم ذلك بكلام علمي رصين، يعتبر حداً فاصلاً للنزاع، لمن نظر بتفحص وإنصاف، وفكر بتمعن وإدراك، قائلاً: «فهذه أصول اتفق أهل السنة على قواعدها، وضللوا من خالفهم فيها، وفي كل ركن منها مسائل أصول، ومسائل فروع، وهم يجمعون على أصولها، وربما اختلفوا في بعض فروعها اختلافاً لا يُوجب تضليلاً ولا تفسيقاً»¹.

الشيء نفسه فعله الإمام الآمدي رحمه الله، فقد ذكر في معرض حديثه عن مقالات الفرق، أن الفرقة الناجية التي تشمل: «الأشاعرة، والسلفية من المحدثين، وأهل السنة والجماعة، فهم مجمعون على حدوث العالم... -إلى آخر الأصول العقدية التي ذكرها-².

ومن نص على ذلك من كبار أئمة المذهب الحنبلي، الإمام شمس الدين السفاريني رحمه الله، حيث قال: «أهل السنة والجماعة ثلاث فرق: الأثرية وإمامهم أحمد بن حنبل رضي الله عنه، والأشعرية وإمامهم أبو الحسن الأشعري رحمه الله، والماتريدية وإمامهم أبو منصور الماتريدي - رحمه الله»³.

ومن هنا كان لزاماً على الباحثين، الذين يبحثون بكل موضوعية وتجرد، أن يدركوا حقيقة هذه الأصول المستنبطة، مما وصف الله عز وجل به نفسه في كتابه، أو صح على لسان نبيه عليه أفضل الصلاة وأزكى

1 - الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية للبغدادي، ط2، دار الآفاق الجديدة-بيروت: 1977م. ص310.

2 - أبكار الأفكار في أصول الدين للآمدي، تحقيق: د. أحمد محمد المهدي، ط2، دار الكتب والوثائق القومية-القاهرة: 2004م. ج5، ص96.

3 - لوايع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرر المضية في عقد الفرقة المرضية، للسفاريني، ج1، ص73.

التسليم، ومن أجل معرفة ذلك، لا بد من الاطلاع على منهج أئمتنا من أهل السنة والجماعة، من سلف الأمة وخلفها من الأئمة العدول، وكيفية تعاملهم مع النصوص العقديّة، سواء المحكم منها أو المتشابه، لكون هذا الموضوع الشائك والخطير، قد زاعت فيه أفكار، وزلت فيه أقلام، وتشتت فيه آراء، واختلفت فيه أقوال، وتاهت فيه كثير من الفرق بين معطل من جهة، ومجسم أو مشبه من جهة أخرى، واصفين الله بما لا يليق بجلال وجهه الكريم وعظيم سلطانه، حتى خرجوا عن المنهج الصحيح، منهج القرآن والسنة وسلف الأمة وخلفها، ولم يثبت على الطريق القويم إلا من وفقه الله تعالى من أئمة أهل السنة والجماعة من العلماء المحققين.

ومن المؤسف جدا، أن نرى كثيرا من الباحثين يعتمدون في عصرنا هذا على بعض الكتابات الحادثة والرسائل الصغيرة لهذا الفريق أو ذاك، ثم يتسرعون في انتقاد المخالف وتبديعه، بل الأدهى والأمر من ذلك، هو إصدار أحكام جاهزة على جمهور علماء الأمة؛ وأنهم ليسوا من أهل السنة والجماعة، ولا من فرقها الناجية، ومن الخطأ الجسيم، والمنكر العظيم، أن نلغي جهود أئمة عظام، وعلماء كبار، نقلوا نهج سلف الأمة الأخيار، فلا تقديس للأشخاص ولا للأقوال؛ ما لم يقيم على صحتها وسلامتها نص صحيح يؤيدها، أو عقل صريح يساندها، فكل يؤخذ من قوله ويترك، ما عدا قول الله عز وجل، وقول نبيه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

ومما تجب الإشارة إليه هنا، أن منهج جمهور السلف في تقرير مسائل العقيدة قائم على الإيمان بكل ما جاء عن الله سبحانه وتعالى، وكل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع التسليم التام، والتفويض الكامل في المعنى والمراد. ومعنى ذلك، أنهم يؤولونها تأويلا إجماليا بصرفها عن ظاهرها المحتمل للتشبيه، وهذا ما يتجلى في قولهم: (الله أعلم بمرادها). أو (أمروها كما جاءت). أو (قراءتها تفسيرها). وفي مثل ذلك يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله، عند تفسيره لآية الاستواء في [سورة الأعراف: 54]: «وإجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية»⁴.

كما يؤكد ذلك الإمام ابن خلدون رحمه الله بقوله: «فأما السلف من الصحابة والتابعين فأثبتوا له صفات الألوهية والكمال، وفوضوا إليه ما يوهم النقص، ساكتين عن مدلوله»⁵.

إذن، هذا تصوير عام للعقيدة السنية، عقيدة السلف من الصحابة والتابعين والأئمة الأعلام، وهي العقيدة التي كان عليها المغاربة قبل اعتناقهم للمذهب الأشعري. وبناء على ذلك، ينبغي أن نضع تصورا

4 - زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ط1، دار الكتاب العربي - بيروت/ لبنان: 1422هـ. ج2، ص126.

5 - المقدمة لابن خلدون، دراسة وتحقيق وتعليق: د. عبد الواحد وافي، ط7، دار نهضة مصر للنشر - مصر: 2014م. ج3، ص980.

عاما للمنهج الأشعري، ونبين علاقته بمنهج السلف المتقدمين، كي يتجلى سبب الانسجام الذي حصل بين المغاربة والمذهب الأشعري.

المحور الثاني: العلاقة بين المنهج الأشعري ومنهج السلف المتقدمين:

غير خاف على الباحثين في هذا المجال، أن المدرسة الأشعرية بُنيت على منهجين: التفويض وهو الأصل، والتأويل ويلجأ إليه عند الاحتياج، بيد أنه قد يغلب طريق على آخر في مرحلة من المراحل الزمنية، أو عند شخصية من الشخصيات العلمية الكبيرة. ومن هنا نجد الأشاعرة المتقدمين، كإمام المذهب أبي الحسن الأشعري رحمه الله، غلب عندهم منهج التفويض، وأن المتأخرين بدءا من الإمام الرازي رحمه الله، غلب عندهم التأويل، وذلك مراعاة لسياقات العصر، وطبيعة الأفكار الوافدة، واتساع رقعة البلاد الإسلامية، مما أدى لا محالة إلى دخول الفلسفة اليونانية والثقافات المختلفة، وهذا ما دعا العلماء إلى الاطلاع عليها، ومناقشتها ومناظرة أصحابها بنفس الآليات.

وقد ذكر الإمام ابن السبكي في معرض ترجمته لإمام الحرمين الجويني رحمه الله، أن «لأشاعرة قولين مشهورين في إثبات الصفات، هل تمر على ظاهرها مع اعتقاد التنزيه. أو تؤول؟ والقول بالإمرار مع اعتقاد التنزيه هو المعزَّوُّ إلى السلف، وهو اختيار الإمام في (الرسالة النظامية) وفي مواضع من كلامه، فرجوعه معناه: الرجوع عن التأويل إلى التفويض. ولا إنكار في هذا ولا في مقابله، فإنها مسألة اجتهادية؛ أعني مسألة التأويل أو التفويض مع اعتقاد التنزيه»⁶.

ويؤيد ذلك ما أورده الإمام النووي رحمه الله، فقد نص على أن للسلف والخلف في كيفية تعاملهم مع آيات وأحاديث الصفات طريقتين: ومختصرهما أن مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين: هو الإيمان بأنها حق على ما يليق بالله تعالى، وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد، ولا يتكلم في تأويلها، مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق، وعن الانتقال والحركات، وسائر سمات الخلق. وأما مذهب أكثر المتكلمين وجماعات من السلف، كمالك والأوزاعي وغيرهما رحمهم الله: فإنها تُتَأَوَّلُ على ما يليق بها، بحسب مواطنها. فعلى هذا تأولوا هنا حديث النزول -مثلا- بتأويلين: أحدهما: تأويل مالك بن أنس وغيره، معناه: تنزل رحمته وأمره وملائكته، كما يقال: فعل السلطان كذا، إذا فعله أتباعه بأمره. والثاني: أنه على الاستعارة، ومعناه: الإقبال على الداعين بالإجابة واللفظ⁷.

6 - طبقات الشافعية الكبرى، ج 5، ص 191.

7 - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووي، ط 2، دار إحياء التراث العربي - بيروت/ لبنان: 1392 هـ. ج 6، ص 37، بتصرف. ومقدمة المجموع شرح المهذب، للإمام النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، ط، مكتبة الإرشاد - جدة - السعودية: 1980 م. ج 1، ص 25.

وعليه، فإن القاسم المشترك الذي اتفق المسلمون عليه، هو: تنزيه الله تعالى عما يقتضيه ظاهر تلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، من إثبات المكان والجوارح والأعضاء، وطرو الحوادث عليه، تمسكا بالمحكم من النصوص الدالة على ذلك، وتنفيذا لأمر الله عز وجل، ولتحذيره من اتباع المتشابه، والخوض في تأويله، مع ترك المحكم الواضح⁸.

وغاية الأمر وخلاصة الكلام، أن المنهج الأشعري يحتوي المنهج السني بجناحيه: أولهما: المحافظ، المتمسك بالتفويض، دون الخوض في علم الكلام.

وثانيهما: المتخذ من العقل أساسا للدفاع عن النص. فجاء المنهج الأشعري محتويا لهما معا، وهذا لا يخفى على الناظر في كتب أئمة المذهب، بداية من الإمام الأشعري رحمه الله. كما ينجلي الأمر واضحا تمام الوضوح بأدنى مقارنة بين كتابي (الإبانة) و(اللمع)، ومثل ذلك يقال عند مقارنة كتابي (الإنصاف) و(التمهيد) للباقلاني، أو بين كتابي (الإرشاد) و(النظامية) للجويني، وهكذا دواليك... وقد قال الإمام اللقاني رحمه الله في (جوهرة التوحيد):

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها⁹

هذه كانت مقارنة بين منهج السلف المتقدمين، والخلف المتأخرين، وعلى رأسهم أهل السنة الأشاعرة.

المحور الثالث: أسباب اختيار المغاربة للمذهب السني الأشعري؛

قد كانت عقيدة المغاربة عقيدة سنية، منذ الفتح الإسلامي لهذه البلاد، ودخول الإسلام إليها، رغم محاولة النحل والفرق الكلامية المخالفة للسنة بسط سيطرتها، ونشر أفكارها على هذه الأقطار؛ كالمذ الشيعي، والخارجي المتمثل بالخصوص في الإباضية والصفيرية، وكذلك الاعتزالي، إلا أن هؤلاء كلهم لم ينجحوا في الاستقرار والترسيم والاستمرار، وإن كانوا في بعض الفترات بدا لهم أنهم نجحوا في ذلك، لكنها سحابة سرعان ما انكشفت وانتفض المغاربة بعلمائهم وعوامهم للتصدي لها.

وقبل الحديث عن أسباب اختيار المغاربة للعقيدة الأشعرية، لا بد من التنبيه على أمر غاية الأهمية؛ ذلك أن نشأة المذاهب والفرق جاءت موافقة لمقتضيات الواقع، وما دعت إليه الحاجة، فلا أحد من أئمة المذاهب، سواء الفقهية أو العقدية أو السلوكية، أنشأ مذهباً ودعا إليه، وهذا الأمر ينطبق بالذات على المذهب الأشعري، فإن إمامه لم ينشئ مذهباً، ولم يبدع رأياً، ولا دعا أحداً إلى اتباعه، وإنما أراد الرجوع إلى ما كان عليه سلفه من الصحابة والتابعين وكبار الأئمة، وتصفية العقائد عما شابها من شبه المعتزلة وغيرهم

8 - كبرى اليقينيات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ط 32، دار الفكر - دمشق: 2011 م. ص 137. بتصرف كبير.

9 - تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، للبيجوري، ط 1، دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء: 1430 هـ / 2009 م. ص 115.

من الفرق المخالفة، بعدما نشأ وترعرع في حجر المعتزلة، أصحاب النظر العقلي، وأهل الجدل والمناظرة، إلا أنه بعد ما استوى عوده، واشتد عضده، وتمكن من علوم عصره النقلية والعقلية، وتمرس في علم الجدل وقوانين المناظرة، تبين له الصواب، فاختر منهجاً فكرياً معتدلاً، سلك فيه مسلكاً وسطاً بين ما كان رائجاً في عصره من آراء الفرق المتناحرة، جامعاً بين صحيح المنقول وصريح المعقول، مؤيداً العقائد الإيمانية بالدلائل النقلية والبراهين العقلية.

وبناء على ذلك، استحق الإمام الأشعري رضي الله عنه أن يوصف بأنه إمام أهل السنة والجماعة، تقديراً لجهوده العظيمة، التي تجلت في التصدي للرد على المعتزلة ومواجهتهم، بعدما تربى في مدرستهم سنين طوالاً. وطبيعة المرحلة التي عاشها -الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله-، اقتضت أن يوجد من يتصدى للأفكار الدخيلة، التي شابت صفاء العقيدة السنية، خصوصاً وأن المعتزلة كانت في مرحلة ضعف بعدما أزاحهم الخليفة العباسي المتوكل عن حظيرته، وقرب خصومهم من الفقهاء والمحدثين، وفك قيود العلماء، فتجرد لمواجهتهم مجموعة من العلماء، ومن ورائهم العامة يؤيدونهم، وبعض الخاصة يوافقونهم، والخلفاء يناصرونهم، وظهر في آخر القرن الثالث رجلاً: أحدهما بالبصرة، وهو: أبو الحسن الأشعري، والآخر بسمرقند، وهو: أبو منصور الماتريدي، رحمهما الله، والقاسم المشترك بينهما هو مقاومة المعتزلة، على الخلاف بينهما في القرب منهم والبعد عنهم¹⁰.

إن هذين الإمامين هما من قادا راية الدفاع عن العقيدة، والرد بها إلى المنهج الصحيح، منهج القرآن والسنة وسلف الأمة، دون إهمال للنقل، ولا غلو في العقل، فجعلاهما يعملان جنباً إلى جنب. وقد عظم شأن الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله بعد تصديه للرد على المعتزلة، وصار له أتباع كثيرون؛ لقيامه بإحياء مذهب سلفه المتقدمين عليه من أهل السنة، وبلائه البلاء الحسن في هذا الشأن، حتى نُسب وضع العقائد إليه، وصار كل من ترجم له يصفه بإمام أهل السنة والجماعة.

وفي ذلك يقول الإمام تاج الدين ابن السبكي رحمه الله: «شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى، الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري، شيخ طريقة أهل السنة والجماعة، وإمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين، والذاب عن الدين، والساعي في حفظ عقائد المسلمين يبقى أثره إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، إمام حبر، وتقي بر، حمى جناب الشرع من الحديث المفترى، وقام في نصره ملة الإسلام فنصرها نصراً مؤزراً¹¹.

10 - تاريخ المذاهب الإسلامية، لأبي زهرة، ط، دار الفكر العربي-القاهرة: 1430هـ/2009م، ص 167.

11 - طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي، تحقيق: محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، ط 1، مطبعة عيسى الحلبي: 1964م، ج 3، ص 366.

وإذا تقرر هذا؛ فما هي الأسباب التي جعلت المغاربة يختارون هذا المذهب؟ وما هي العوامل التي ساعدت على انتشار العقيدة الأشعرية السنية في البلاد المغربية؟

لا شك أن انتشار المذهب الأشعري في سائر الأقطار والأمصار، يعد أمراً مسلماً لا ينكره ذو عقل سليم، وتفكير سديد، والواقع أكبر شاهد على ذلك؛ إذ اعتنقته الجماهير من العلماء شرقاً وغرباً، واعتُبر المذهب الرسمي للحواضر العلمية الكبرى، كالقرويين، والزيتونة، والأزهر الشريف... فإن الدراسة فيها لم تكن لتخرج عن هذا السياق.

وتجلى أهم المعطيات الواقعية والموضوعية التي أسهمت في انتشار المذهب السني الأشعري في الغرب الإسلامي، -وتقريباً هي نفسها التي أدت إلى انتشاره في سائر الأقطار الأخرى-، وسيادته للساحة الفكرية والعلمية، بحيث أصبح المذهب الرسمي في معظم البقاع الإسلامية، فيما يلي¹²:

أولاً- المذهب السني الأشعري وحّد المذاهب الفقهية وعلى رأسها المالكية:

يعتبر التوجه السني الأشعري، هو اختيار جماهير العلماء من جميع المذاهب الفقهية المعتمدة، على اختلاف تخصصاتهم العلمية، من أهل التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، وغير ذلك.. من أمثال الأئمة: ابن فورك، والبيهقي، والباقلاني، وأبي إسحاق الإسفراييني، والخطيب البغدادي، وأبي الوليد الباجي، وإمام الحرمين الجويني، وحجة الإسلام الغزالي، وابن العربي المعافري، والقاضي عياض، والنووي، والفخر الرازي، والآمدي، والعز بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، والحافظ ابن حجر، وغيرهم كثير.. رحمهم الله. وقد ذكر طبقاتهم: الحافظ المؤرخ أبو القاسم ابن عساكر رحمه الله في (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري)¹³، والإمام ابن السبكي رحمه الله في (طبقات الشافعية الكبرى)، عند ترجمته للإمام الأشعري رضي الله عنه. ولا شك أن فقهاء المالكية يأتون في طليعة هؤلاء الأعلام، حتى قال ابن السبكي رحمه الله: «وبرأ الله المالكية، فلم نر مالكيًا إلا أشعرياً عقيدة»¹⁴.

وقال الإمام عز الدين بن عبد السلام (ت 660هـ) رحمه الله: «إن عقيدته اجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة»¹⁵.

12 - للحديث عن أسباب اختيار المغاربة للعقيدة الأشعرية، يراجع: تقريب المذهب والعقيدة والسلوك، د. عبد الله معصر، منشورات مركز دراس بن إسماعيل لتقريب المذهب والعقيدة والسلوك-الرابطة المحمدية للعلماء، ط1، دار أبي رقرق للطباعة والنشر-الرباط: 2012م، ص90.

13 - أحسن طبقات كتاب: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري، لابن عساكر، طبعة بتقديم وتعليق: العلامة الكوثري، وتحقيق: أنس محمد عدنان الشرفاوي، ط1، دار التقوى للطباعة والنشر والتوزيع-دمشق: 1440هـ/2018م.

14 - معبد النعم ومبيد النقم، لابن السبكي، ص62. ط1، مؤسسة الكتب الثقافية-بيروت/لبنان: 1407هـ/1986م.

15 - طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي، ج3 ص366.

وهاهو نص آخر يؤيد سابقه ويدعمه، وهو ما صرح به الإمام ابن السبكي في كتابه (معيد النعم ومبيد النقم)، حيث قال: ”وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة - والله الحمد - في العقائد يد واحدة، كلهم على رأي أهل السنة والجماعة، يدينون الله تعالى بطريق شيخ السنة أبي الحسن الأشعري رحمه الله، لا يحيد عنها إلا راع من الحنفية والشافعية، لحقوا بأهل الاعتزال، ورعاع من الحنابلة لحقوا بأهل التجسيم، وبرأ الله المالكية، فلم نر مالكيًا إلا أشعريًا عقيدة“¹⁶.

ثانيا- المذهب الأشعري هو الممثل لأهل السنة، والناطق الرسمي باسمهم:

من أبرز دواعي انتشار المذهب السني الأشعري، أنه يعتبر -إلى جانب المذهب الماتريدي-، الممثلين الرئيسيين لأهل السنة، والناطقين الرسميين بعقيدة سلف الأمة، وهذا ما تؤكد الوقائع، وتضافرت به نصوص الأئمة، فالمذهب الأشعري تفويضا وتأويلا تسليما وتوجيها، هو امتداد لما كان عليه السلف المتقدمون من الصحابة والتابعين وتابعيهم والأئمة الأعلام، وهذا باعتراف أئمة أهل السنة على مر العصور. ومما يدل على ذلك قول الإمام الزبيدي رحمه الله: «إذا أطلق أهل السنة والجماعة، فالمراد بهم الأشاعرة والماتريدية»¹⁷.

ويقول القاضي عياض السبتي متحدثا عن الإمام الأشعري رحمه الله: «وصنف لأهل السنة التصانيف، وأقام الحجج على إثبات السنة، وما نفاه أهل البدع من صفات الله تعالى ورؤيته وقدم كلامه وقدرته... وغير ذلك من مذاهب أهل السنة والحديث، فأقام الحجج الواضحة عليها من الكتاب والسنة، والدلائل الواضحة العقلية، ودفع شبه المبتدعة، ومن بعدهم من الملحدة والرافضة... فأهل السنة من أهل المشرق والمغرب بحججه يحتجون، وعلى منهاجه يذهبون، وقد أثنى عليه غير واحد منهم، وأثنوا على مذهبه وطريقه»¹⁸.

ثالثا- المذهب الأشعري مذهب الوسطية والاعتدال:

يعرف المذهب الأشعري بأنه مذهب الوسطية والاعتدال، وقد رسم الحافظ ابن عساكر رحمه الله معالم هذه الوسطية، التي خطها الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله في سائر أبواب العقائد، وسأكتفي بإيراد نبذ يسيرة منها على سبيل التمثيل:

ففي صفات الله تعالى، سلك الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله سبيلا وسطا بين المعتزلة المعطلين، والחסوية المشبهين، فأثبت لله علما وقدرة وسمعا وبصرا... وغير ذلك مما أثبتته تعالى لنفسه في كتابه، أو على لسان نبيه، دون تعطيل أو تشبيه.

16 - معيد النعم ومبيد النقم لابن السبكي، ص 62.

17 - إنحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين لمرتضى الزبيدي، (د. ط)، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت/ لبنان: 1414هـ/ 1994م. ج 2، ص 6.

18 - ترتيب المدارك، ج 5، ص 24. بتصرف.

كما سلك في بيان قدرة الله تبارك وتعالى، وأفعال الإنسان، مسلكا وسطا بين مقالة الجبرية القائلين: إن العبد لا يقدر على إحداث شيء، ولا على كسب شيء، بل هو مجبر على فعله. ومقالة المعتزلة القائلين: إن العبد قادر على الإحداث والكسب معاً، فهو يخلق أفعال نفسه. فقال: إن العبد لا يقدر على الإحداث، ويقدر على الكسب، ونفى قدرة الإحداث، وأثبت قدرة الكسب، فالله خالق مختار، والعبد مكتسب. وهكذا في مسألة التشابه من الألفاظ الواردة في القرآن الكريم والحديث النبوي، ومسألة القرآن وأنه كلام الله غير مخلوق، وقضية الإيمان وغير ذلك...¹⁹.

رابعاً- المذهب الأشعري المحضن الآمن للآمن الديني والروحي والفكري:

كان لتفسير أهل السنة الأشاعرة الإيمان بالتصديق القلبي، دون إدخال أعمال الظاهر في مسماه أثر كبير في تقريب مفهوم الإيمان؛ إذ حافظوا على مضمونه الشرعي من جهة أولى، وعلى حياة الإنسان المسلم وكرامته، باعتباره مخاطباً بتمثل حقيقة الإيمان في جميع أحواله من جهة ثانية.

وقد عاشت الأمة الإسلامية تجربة تاريخية بعيدة كل البعد عن دعاوى التكفير والإرهاب، وهذا راجع أساساً إلى سيادة الفكر الأشعري السني المعتدل، وانتصار جمهور العلماء من المالكية والشافعية والحنفية والحنابلة، بوصفهم شخصيات فاعلة في المجتمع لهذا الفكر، الذي جعل من بين أهدافه الأساسية الحفاظ على حياة الإنسان ومعتقداته، والسمو به إلى الدرجات العلاء.

تلكم هي أهم الأسباب التي أدت بالمغاربة وغيرهم إلى اعتناق هذا المذهب، والتشبث بأفكاره المبنية على الوسطية والاعتدال والتسامح وقبول الآخر، وإذا تقرر أن المذهب الأشعري هو امتداد لما كان عليه السلف المتقدمون، غاية الأمر أنه كان هناك نوع تجديد على مستوى المنهج في تقرير العقائد السنية، والاستدلال عليها بالأدلة النقلية والعقلية.

خاتمة البحث:

من خلال ما تقدم، تم التوصل إلى ما يلي:

- كانت عقيدة المغاربة منذ دخول الإسلام إلى هذه البلاد، وقبل دخول المذهب الأشعري، سنية على منهج السلف المتقدمين.
- يقوم منهج السلف من الصحابة والتابعين والأئمة الأعلام على التفويض مع التنزيه؛ أي تفويض المعنى، وقد يلجأون للتأويل عند الاقتضاء.

19 - مزيد تفصيل في: تبين كذب المفتري، لابن عساكر، ص 304-309.

- أصول عقائد أهل السنة سلفا وخلفا أشعرية، أو ماتريدية متفقة، ولا يوجد أي اختلاف بينها، وإنما الاختلافات ترجع إلى المنهج، أو بعض التفاصيل والقضايا الجزئية.
- وجد الفكر الأشعري السني عند دخوله إلى بلاد الغرب الإسلامي مناخا مناسباً ومهيئاً لذلك؛ لأنه يتلاءم تمام الملاءمة مع ما كانوا عليه من عقيدة سنية، غاية الأمر أنه عمق التفكير العقدي عندهم، وأكسبهم آليات وقواعد يتمكنون بها من مواجهة الأفكار الدخيلة على عقائد أهل السنة، ومجابهة الفرق المختلفة التي كانت موجودة مُناهضةً لأهل السنة. وعموماً فإن المنهج الأشعري الذي يزاوج بين العقل والنقل، ويتسم بالوسطية والاعتدال؛ قد وجد أرضية خصبة في بلاد المغرب. كما أن العقلية المغربية كانت على أتم الاستعداد لذلك.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - أبكار الأفكار في أصول الدين، للآمدي، تحقيق: د. أحمد محمد المهدي، ط2، دار الكتب والوثائق القومية-القاهرة: 2004م.
- 2 - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، لمرتضى الزبيدي، (د. ط)، مؤسسة التاريخ العربي-بيروت/ لبنان: 1414هـ/ 1994م.
- 3 - تاريخ المذاهب الإسلامية، لأبي زهرة، ط، دار الفكر العربي-القاهرة: 1430هـ/ 2009م.
- 4 - تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري، لابن عساكر، طبعة بتقديم وتعليق: العلامة الكوثري، وتحقيق: أنس محمد عدنان الشرفاوي، ط1، دار التقوى للطباعة والنشر والتوزيع-دمشق: 1440هـ/ 2018م.
- 5 - تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، للبيجوري، ط1، دار الرشاد الحديثة-الدار البيضاء: 1430هـ/ 2009م.
- 6 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض. ط2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: 1983م.
- 7 - تقريب المذهب والعقيدة والسلوك، د. عبد الله معصر، منشورات مركز دراس بن إسماعيل لتقريب المذهب والعقيدة والسلوك-الرابطة المحمدية للعلماء، ط1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر-الرباط: 2012م.

- 8 - زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ط1، دار الكتاب العربي - بيروت / لبنان: 1422هـ.
- 9 - طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي، تحقيق: محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، ط1، مطبعة عيسى الحلبي: 1964م.
- 10 - الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، لأبي منصور البغدادي، ط2، دار الآفاق الجديدة-بيروت: 1977م.
- 11 - كبرى اليقينيّات الكونية، محمد سعيد رمضان البوطي، ط32، دار الفكر - دمشق: 2011م.
- 12 - لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية للسفاريني، ط2. مؤسسة الخافقين ومكتبتها - دمشق: 1402هـ - 1982م.
- 13 - المجموع شرح المذهب، للإمام النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، (د. ط)، مكتبة الإرشاد - جدة السعودية: 1980م.
- 14 - معيد النعم ومبيد النقم، لابن السبكي، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية-بيروت/لبنان: 1407هـ/ 1986م.
- 15 - المقدمة لابن خلدون، دراسة وتحقيق وتعليق: د. عبد الواحد وافي، ط7، دار نهضة مصر للنشر - مصر: 2014م.
- 16 - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووي، ط2، دار إحياء التراث العربي-بيروت/لبنان: 1392هـ.

«أم البراهين» في الدراسات الألمانية عرض لترجمتي: «فولف» و «هورتن»

• ذ. سعيد الهبطي

أستاذ باحث - ألمانيا

تقديم

تروم هذه المقالة الكشف عن جانب من اهتمام الدارسين الألمان بإنتاج أشاعرة الغرب الإسلامي المتأخرين ترجمة ودراسة، وذلك من خلال رسالة: «أم البراهين» للإمام أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي.

لقد تمت ترجمة ودراسة هذه الرسالة من قبل مستشرقين ألمانين في فترتين زمنيتين متقاربتين نوعاً ما؛ أولاهما كانت منتصف القرن التاسع عشر، من قبل «م. فولف»، وثانيهما بداية القرن العشرين، من قبل «م. هورتن»؛ حيث عرف الاستشراق الألماني حينها نشاطاً معرفياً ملحوظاً، سواء من حيث الكم، أم من حيث مستوى ونوعية التعامل مع النصوص العربية والإسلامية.

وسنقف هنا على طبيعة تعامل كل منهما مع هذه الرسالة؛ من حيث مستوى الترجمة ودوافع اختيارهما لها، والغايات التي سعى إليها كل منهما من خلال هذا العمل. كما ستتم محاولة ضبط الاسم الكامل للمستشرق «فولف» الذي تنسب إليه أول ترجمة ألمانية لأم البراهين.

وقد قسمت مضامين هذه المقالة إلى تمهيد ومبحثين ثم خاتمة.

التمهيد: وهو بمثابة إطار عام لهذا البحث؛ أشير فيه باختصار شديد إلى أهمية هذه الرسالة «أم البراهين» ومؤلفها في تاريخ المذهب الأشعري بالغرب الإسلامي، وخلاصة رأي الباحثين في ذلك.

المبحث الأول: أعرف فيه بكل من «فولف» و «هورتن»؛ وبدوافعهما في ترجمة ودراسة هذه الرسالة.

المبحث الثاني: أعرف فيه بكتايبهما وطبيعة تناولهما لهذه الرسالة.

تمهيد

يكاد يجمع دارسو المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي على أن الإمام أبا عبد الله محمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة 895هـ / 1490م قد شكل - من خلال حضوره الروحي، بوصفه أحد أقطاب التصوف السني بالمغرب، وحضوره العلمي الذي تشهد به مؤلفاته - خاصة في مجال العقيدة،¹ حتى «حلي بصاحب العقائد»² مرحلة تاريخية متميزة في تطور المذهب الأشعري بالغرب الإسلامي ككل، وبالمغرب الأقصى على وجه التخصيص، وسمت بالمرحلة السنوسية، وكان لها تأثيرها الخاص في تطور هذا المذهب، سواء من حيث طبيعته التي اتخذت صبغة صوفية³ إلى حد ما، أم من حيث أثره في تشكيل الوعي العقدي لعامة المسلمين.

نالت مؤلفات السنوسي العقدية رضى واستحسان جماهير العلماء وأمكنها بعد ذلك أن تجد طريقها إلى طلبة العلم ثم إلى العامة من المسلمين؛ وكان لرسالته المسماة بـ «أم البراهين»، والمعروفة أيضا بـ «السنوسية» و «العقيدة الصغرى»، أثر خاص من بين جميع مؤلفاته في هذا الجانب؛ يشهد لذلك ما كتب عليها من شروح وحواش؛⁴ فقد امتازت بـ «المرج بين العلم بالعقائد الإيمانية والعمل بها»⁵؛ وانتهت إليها السلطة المعرفية في هذا الجانب.⁶

فاقت شهرة «أم البراهين» حدود رقعة الغرب الإسلامي لتتم ترجمتها إلى لغات أوروبية. وكان الألمان من السباقين لذلك حيث نقلها إلى الألمانية وعلّق عليها م. فولف سنة 1848، ثم نشرها بالفرنسية لوسيانى / Lucnani, J.D (1851-1932) في الجزائر، سنة 1896م؛⁷ ليعيد بعد ذلك ترجمتها ودراستها المستشرق الألماني م. هورتن، وينشرها مع «كفاية العوام فيما يجب عليهم من علم الكلام» للإمام الفضالي، سنة 1916م. وقد أدرك هورتن قيمة «أم البراهين» في تشكيل الوعي العام، ليس فقط لطلاب المدارس الشرعية، ولكن أيضا للعامة من المسلمين، لذا لم يعمل على ترجمتها وحسب، وإنما أراد أن يلفت لها الأنظار، ويجعل منها مدخلا رئيسيا لفهم روح الثقافة الإسلامية.

- 1 - قال عنه ابن عسكر الشفشاوني ت 986هـ / 1578م: «... وعقائده الخمس وشروحاتها من أفضل ما ألف في الإسلام، .. واتفاق فحول الأولياء وأكابر العلماء على فضله وتلقي تأليفه بالقبول». دوحة الناشر، ص 121.
- 2 - خالد زهري، من علم الكلام إلى فقه الكلام، ص 600.
- 3 - انظر، زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، ص 646 وما بعدها.
- 4 - انظر: يوسف احناة، تطور المذهب الأشعري، ص 271-274.
- 5 - بطار عبد القادر، «دلالة ست وستين عقيدة في التراث العقدي الأشعري المغربي»، بحث ضمن أعمال ندوة: الفكر الأشعري بالمغرب، خلال مرحلتي التأسيس والترسيم، تنسيق جمال غلال البختي، م. 2، ص 960.
- 6 - انظر مقالة خالد زهري: منزلة صغرى السنوسي عند المغاربة، ص 1-13، بحث منشور، ب د ف على الشبكة العنكبوتية.
- 7 - نجيب العقيلي، المستشرقون، نشر دار المعارف بمصر، ط. 3، 1964م، ج 1، ص 237. ويحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين، ص 955.

المبحث الأول: التعريف بفولف وهورتن، ودوافعهما لترجمة «أم البراهين».

أولاً: «فولف» Wolff

نسبت أول ترجمة ألمانية لـ «أم البراهين» باللغة الألمانية سنة 1848م؛ والمعونة بد: (El-Senusi's Begriffsentwicklung des Mohammedanischen Glaubensbekenntnisses, Arabisch und Deutsch, mit Anmerkungen) لـ «فولف» Ph. Wolff⁸؛ وهو أمر يحتاج إلى مراجعة وتصويب، حيث إن ترجمة «أم البراهين» وفق العنوان والتاريخ المذكورين أعلاه هي عمل لـ: الدكتور م. فولف. Dr. M. Wolff وليس لـ Ph. Wolff.

و(Dr. M. Wolff) هو الاسم الذي وقع به صاحبه في مقدمته لترجمته وتعليقه على أم البراهين؛ وهو نفسه الموضوع على غلاف الطبعة الأولى، الصادرة في مدينة «لايبزيغ» / Leipzig سنة 1848، عن Friedrich Christian Wilhelm Vogel. أي: (Dr. M. Wolff)؛ وليس (Ph. Wolff).

وقد ذكر «ماكس هورتن» نفسه - في كتابه الذي نتناوله أيضا في هذه المقالة - أن Dr. M. Wolff هو أول من نقلها إلى الألمانية، وعلق عليها سنة 1848م تحت العنوان السالف الذكر.⁹

والأمر نفسه نجده في بعض فهرس الخزانات الجامعية والملكية، حيث تمت نسبة «أم البراهين» وفق العنوان والتاريخ السالفي الذكر لـ «Dr. M. Wolff».¹⁰

8 - جاءت نسبتها له عند كارل بروكلمان،

Geschichte der arabischen Literatur, zweite Ausgabe mit Berichtigungen, Leipzig, C. F. Amelangs Verlag, 1909, S. 213. (sechstes Buch, Siebentes Kapitel: Nordafrika).

قارن ذلك بالنسخة العربية، القسم السابع، م. 12، ص 471. وتم تناقل ذلك في كثير من المعاجم الورقية، مثل: Gibb & Kramers, Shorter Encyclopaedia of Islam, Leiden, E. j. Brill 1974, S. 503. والرقمية مثل: http://www.eslam.de/begriffe/a/aa/abu_abdullah_sanussi.htm، واكتفى بدوي بدوره بما ذكره بروكلمان هنا؛ فقال بعدما أشار إلى أن «ماكس هورتن» ترجم «أم البراهين»: «وكانت عقيدة أهل التوحيد الصغرى المعروفة بأم البراهين أو بالسُنوسية قد نشر نصها العربي وترجمه إلى الألمانية Ph. Wolff في 1848». موسوعة المستشرقين، ص 620. والغريب أن بدوي لم يطلع ربما على أن هورتن قد ذكر بنفسه أن الذي ترجم أم البراهين أولاً هو Dr. M. Wolff. ونفس الشيء فعله العقيلي، المستشرقون، ج. 2، ص 711. وذكره إدوارد فنديك أكثر من مرة مقتصرًا على «العلامة فولف الألماني»، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، انظر مثلاً ص 169، وكذلك ذكره كل من لويس غرديه وج. قنواقي، في كتابيهما: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ترجمة صبحي الصالح، وفريد جبر، ج 1، ص 309، في الهامش. ونفس الشيء فعله يوسف إيلان سركيس، في كتابه: معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، ج 1، ص 1058، حرف (س)، وهو ما اكتفى به بعض الباحثين المعاصرين؛ مثل سعيد البوسكلاوي، في مقاله: بعض سمات كلام السنوسي وحدوده، مؤنون بلا حدود، 18 يونيو 2016م.

9 Mohammedanische Glaubenslehre, s. 4. (في الهامش)

10 - انظر:

Katalog der kaiserlichen Universitäts- und Landesbibliothek in Strassburg, arabischer Literatur, Strassburg, Verlag von Karl J. Trübner, 1877, s. 77.

فالذي نقل «أم البراهين» أولا للغة الألمانية هو: م. فولف، ويكتب اسمه هكذا غالبا: Dr. M. Wolff. وهو حبر يهودي، بخلاف فيليب فولف الذي يُعرف بأنه مسيحي إنجيلي.¹¹

وقد جاء اسمه كاملا في بعض المعاجم اليهودية على النحو التالي: Maurice Wolff، أو Moriz¹² Wolff.¹³ وجاء في بعض الدراسات التي أرخت لليهود في جامعة لايبسيغ بألمانيا، مضافا إليه حرف (J) كإشارة لاسم ثلاثي على النحو التالي: Maurice J. Wolff.¹⁴

ولد موريس فولف سنة 1824م بمدينة ميزريتس Meseritz¹⁵، لأسرة يهودية، إبان فترة الدولة البروسية. ودرس في جامعة برلين، ثم في لايبسيغ على يد فلايشر سنة 1847-1848م، وفيها أنجز عمله حول رسالة «أم البراهين» وأهداه إياه. اختير سنة 1849م حبرا لمعبد مدينة Kulm / كولم؛ ثم لمعبد مدينة «Göteborg» بدولة السويد سنة 1857. وقُدّم بوصفه «حبرا ألمانيا ليبراليا»، واستمر فيها إلى سنة 1899م،¹⁶ وتوفي سنة 1904م.¹⁷

ثانيا: هورتن 1874-1945م

اسمه الكامل: Maximilien Josef Heinrich Horten، ويعرف بـ Max Horten. ولد في السابع من ماي سنة 1874م، بمنطقة: إلْب فيلد / Elbefeld¹⁸؛ وتوفي في الثاني من يوليوز سنة 1945م.

11 - بخصوص فيليب فولف، يمكن الاطلاع على ترجمته في معجم Deutsche-Biographie.de على الرابط التالي: <https://www.deutsche-biographie.de/sfz86089.html#adbcontent>
وعلى الرابط: Academic dictionaries and encyclopedias <https://deacademic.com/dic.nsf/dewiki/1104307>

12 - حسب النطق الألماني.

13 - انظر أيضا المراجع التالية: لائحة الأخبار اليهود، م. 1، على الصفحة الرسمية لمعهد شتاين هايم، لتاريخ اليهود الألمان / Salomon Wolff, Moritz, Dr., geb. 1824 in Międzyrzecz (Meseritz), Prov. Posen, gest. 19. März 1904 in Göteborg, Schweden. <http://www.steinheim-institut.de/wiki/index.php/RabbinerHandbuch:1:Namenliste#W>.

14 - Bausteine eine jüdischen Geschichte der Universität Leipzig, Stephan Wenderhorst (Hg), Leipziger Beiträge zur jüdischen Geschichte und Kultur, Band IV 2006, S. 252-253.

15 - هي اليوم ضمن أراضي دولة بولونيا.

16 - انظر الصفحة الرسمية «لمعبد جوتبورج» <https://www.jewishvirtuallibrary.org/gteborg>؛ وفيها أن ذلك كان سنة 1851م. وهناك أتم عمله حول كتاب: «أحوال القيامة» للقاضي، وسماه: «Mohammedanische Eschatologie». وكان ذلك سنة 1872م؛ وعمله الآخر: «ثمانية فصول» سنة 1903م، كما وثق ذلك في مقدمته للكتابين.

17 - انظر: Bausteine eine jüdischen Geschichte der Universität Leipzig, 252-253. و The Jewish Encyclopedia, V:12 P:553.

أيضا رابط الصفحة: <http://www.jewishencyclopedia.com/articles/14991-wolff-maurice>

وفي هذين المرجعين المتخصصين تم التعريف بـ م. فولف، ونسبة الترجمة المذكورة له.

18 - تمثل اليوم أحد الأحياء الرئيسية لمدينة فوبرتال، الواقعة في ولاية شمال الراين.

درس اللاهوت والفلسفة واللغات الشرقية في جامعة فرايبورج، ثم كانت له رحلة إلى المشرق دامت سنتين؛ من 1898م إلى 1900م؛ زار خلالها فلسطين وبيروت. وعمل أستاذاً في كل من جامعتي «بون» Bonn، و«برسلاو» Breslau؛ وكان عضواً في الحزب النازي.¹⁹

ترجم «هورتن» وعلق على مجموعة من النصوص الفلسفية والكلامية، شملت مجموعة من القضايا والأعلام، أمثال: الفارابي²⁰، وابن سينا²¹، وابن رشد²²، إلخ، كما كتب عن بعض الإصلاحيين المتأخرين، أمثال محمد عبدو.²³

اعتبره يوهان فوك (Johann Fück، 1894-1974) ثاني أشهر المهتمين بدراسة الفلسفة الإسلامية عبر تاريخ الاستشراق الألماني كله، بعد أوغست شمولدرز / August Schmölders 1809-1880. لكن مع إشاداته بجهده في تقريب الفلسفة الإسلامية من القارئ الأوروبي، أشار إلى بعض جوانب الخلل في أعماله، وتتمثل -حسب فوك- في ضعف الدقة الاصطلاحية لديه، ثم في اعتماده على نصوص غير مكتملة.²⁴

لقد بالغ هورتن -إضافة لتتبعه لأثر الفلسفة الإغريقية في الكلام الإسلامي-²⁵ في محاولة ربط التصوف الإسلامي -ولو في مراحله الأولى- بالجذور الهندية؛ فرأى على سبيل المثال، وفي سياق نقده لدراسة ماسينيون، أن أفكار الحلاج نابعة من تعاليم المايا / Mayalehra،²⁶ غير أن رؤاه هذه لم تجد قبولا تاما بين أوساط المستشرقين.²⁷

19 - Ludmila Hanisch, die Nachfolger der Exegeten Deutschsprachigen Erforschung, S. 191. و Johann Fück, die arabischen Studien, S. 322. Deutsche-biographie.de: https://www.deutsche-biographie.de/sfz071_00390_1.html

20 - «Das Buch der Ringsteine al-Farabis» 1906.

21 - «Die Metaphysik Avicennas: das Buch der Genesung der Seele» 1907.

22 - «Die Hauptlehren des Averroes nach seiner Schrift: die Widerlegung des Gazali». 1913.

23 - Mohammed Abduh, sein Leben und seine theologisch-philosophische Gedankenwelt; Beiträge zur Kenntnis des Orient 13-14 Halle 1916.

24 - Johann Fück, die arabischen Studien in Europa bis in den Anfang des 20. Jahrhunderts. S. 322.

و بدوي عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، حرف هـ، ص 618. و العقيلي نجيب، المستشرقون، ج 2 ص 768.

25 - أصدر في ذلك كتاباً بعنوان:

Philosophie des Islam in ihren Beziehungen zu den philosophischen Weltanschauungen des westlichen Orients.

ويعني: «فلسفة الإسلام في علاقتها بالرؤى الفلسفية للشرق الغربي»، كان ذلك سنة 1924م.

26 - نشر في ذلك مقالة سنة 1928م، سماها:

«Philologische Nachprüfung von Übersetzungen versuchen mytischer Texte des Hallag».

انظر:

Rudi Paret, Arabistik und Islamkunde an deutschen Universitäten, deutsche Orientalisten seit Theodor Nöldeke, Steiner Verlag, Wiesbaden, 1966, S. 30-31.

27 - انظر. Johann Fück, Die arabischen Studien, s. 322، وانظر أيضاً كتاب أ. شميل، «Mystische Dimensionen des Islam» خاصة بداية ص: 25 وما بعدها، والتي حاولت فيها معالجة سؤال روافد التصوف.

وكان هورتن -حسب رضوان السيد- واحدا من الذين أفاد منهم أحد أشهر الدارسين العرب، وهو محمد عبد الهادي أبو ريذة، في عمله: حول رسائل الكندي (1، 2) في الخمسينات.²⁸

دوافعها لدراسة «أم البراهين».

على الرغم من وجود أرضية مشتركة لدى كل من فولف وهورتن، دفعتهما لترجمة «أم البراهين»، تتمثل في إثراء الدراسات الاستشرافية في موضوع الكلام الإسلامي بشكل عام، والكلام الأشعري بشكل خاص؛ إلا أن هناك اعتبارات ذاتية بحثية تخص كلا منهما في ترجمة ودراسة هذه الرسالة.

كان هذا بالنسبة لفولف أول عمل قام به في مسيرته العلمية، كما يبدو. وقد رآه ثمرة لأستاذه فلايشر 1801-1888م، ومن ثم أهدها إياه، معترفا له بفضلها، ومغدقا عليه أجمل عبارات التقدير والاحترام.²⁹

كما قدمه لمن أسماهم: «أصدقاء الآداب العربية»، راجيا أن يحظى لديهم بالقبول، خاصة في ظل نقص الأعمال الاستشرافية في هذا الجانب، كما عبر عن ذلك.

يظهر من هذا أنه سعى إلى إبراز مهارته في اللغة العربية، وإثبات نجابته أمام أستاذه فلايشر، وإثبات كفاءته المعرفية، وبالتالي الحصول على سمعة أكاديمية. فهو وإن شرح وعلق على المسائل الواردة في هذه الرسالة، إلا أن ذلك كان أساسا بهدف التدقيق في بيان العبارات ذات المدلول العقدي.

أما هورتن فقد أشار في مقدمته إلى أمرين شكلا بالنسبة له سياقاً رئيسياً استدعى تأليف هذا الكتاب، أولهما: الصداقة العثمانية الألمانية؛ وثانيهما: ازدهار الدراسات الاستشرافية في ألمانيا. هذا العامل الأخير يلقي -حسبه- بمسؤولية ثقيلة على الباحثين الألمان، تفرض عليهم التعرف على الشرقي من خلال ثقافته الروحية.

ومع تتبع ثنايا الكتاب نكتشف أن دوافعه في ترجمة «أم البراهين» ذات منحنيين: أولهما ذو طابع شخصي يخص التوجه المعرفي والبحثي لهورتن نفسه؛ ويتمثل في أنه كان يسعى إلى إثبات أثر الفلسفة الهلينية في كتب الأشاعرة المتأخرين، وعلى رأسهم الإمام السنوسي؛ وقد خصص لذلك مقالة سماها: (السنوسي والفلسفة الإغريقية/ Sanūsī und die griechische Philosophie).³⁰

وثانيهما يتعلق بضرورة الحفاظ على السمعة العلمية للاستشراق الألماني؛ فدعا بهذا الخصوص إلى تجاوز ما أسماه: «دراسة الظاهر»، والنفاذ إلى روح الثقافة الإسلامية؛ بما يعني ذلك تجاوز تضخم الأنا

28 - السيد رضوان، المستشرقون الألمان، النشوء والتأثير والمصائر، دار المدار الإسلامي، ط. 2، 2016م، ص 75.

29 - El-Senusi's Begriffsentwicklung. S.1.

30 - منشور في المجلة الاستشرافية المتخصصة: Der Islam, Band 6, Heft 2, Seiten: 178-188. ويمكن الاطلاع على البحث مفصلاً عن المجلة من خلال الرابط: <https://doi.org/10.1515/islam.1915.6.2.178>.

الغربية، والاعتراف بالخصوصية الثقافية للإنسان الشرقي. من هنا يوجه هورتن نقدا لاذعا لبعض المستشرقين الذين تضخمت لديهم نزعة الأنا، وظنوا -حسبه- أنهم استوعبوا ثقافة الشرقي³¹، فقط من خلال اطلاعهم على بعض الطقوس الإسلامية، فيقول: «يغتر بعض الأوروبيين لمعرفة بعض مظاهر الإسلام، ثم يواجهون الشرقي بنفس الوعي، على أساس أنهم فهموا عقل وروح دينه. يكمن في هذا السلوك لبعض الأوروبيين، جرح عميق لكرامة المسلم ووعيه الديني».³²

وجوهر الإسلام يتمثل -حسبه- في ثلاثة جوانب: «التصوف / Mystik» و«الأخلاق / Ethik» و«خصوصية الرؤية الكونية / besondere Weltanschauung».³³ وعبر عن ذلك مرارا -أيضا- بـ «الثقافة الروحية للإسلام / Geisteskultur des Islam»، ويرى أن من لم يفهم الإسلام من خلال هذه المنافذ، فسيشكل صورة خاطئة عنه.³⁴

جوهر الإسلام، أو ثقافته الروحية توجد -حسب هورتن- في مؤلفات العقيدة والفلسفة الإسلامية؛ وهو يصنفها من حيث مستواها والفئة المستهدفة منها إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: مؤلفات موجزة سهلة الفهم، موجهة للطلاب في مراحل التعليم الأولى، وللعمامة. المجموعة الثانية: مختصرات ذات شروح عميقة ودقيقة؛ موجهة للمتعلمين وللطلاب في المراحل المتقدمة.

المجموعة الثالثة: هي المطولات، أو الكتب التي تتناول قضايا كلامية وفلسفية معينة.

تتميز المجموعة الأولى -حسبه- من حيث إنها تقدم العقائد المجردة للقارئ العادي، وبالتالي فهي تشكل وعي العمامة من المسلمين؛ وضمن هذه المجموعة تأتي رسالتي السنوسي «أم البراهين»، والفضالي «كفاية العوام»، وأمثالهما؛³⁵ ومن هنا يستعمل كثيرا عبارة: «العقائد الشعبية / Volkskatechismen».

31 - يقصد هورتن بكلمة «الشرقي»: المسلم، يدل على ذلك سياق الكلام.

32 - Muhammedanische Glaubenslehre, s. 3-4.

النص الأصلي:

«Manche Europäer brüsten sich mit einigen Kenntnissen äußerer Formen des Islam und treten dann dem Orientalen mit dem Selbstbewusstsein gegenüber, Sinn und Geist seiner Religion verstanden zu haben. In diesem Gebaren manche Europäer liegt eine schwere Verletzung des Ehrgefühls und des religiösen Bewusstseins des Muslims».

33 - Mohammedanische Glaubenslehre, s.56.

34 - نفسه.

35 - كمنظومة ابن عاشر، حيث يقول: «... في نظم آيات للأمي تفيد»، مع أنها مشتملة على أقسام الحكم العقلي، وغير ذلك..

وينبه هنا على أن كونها موجهة لطلاب المراحل الأولى وللعمامة من المسلمين، لا يعني أنها سهلة وفي المتناول بالنسبة للقارئ الأوروبي؛ مبررا ذلك باحتوائها على صياغات فلسفية إغريقية، صارت غريبة عن القارئ الأوروبي، فيقول: «سيتفاجأ القارئ الأوروبي، أن هذه العقائد تستهدف أكبر قدر من الجمهور؛ جميع الذين يتعلمون القراءة والكتابة. نرى في هذه العقائد كيف أن الأثر الهليني لا زال قويا إلى اليوم»³⁶ ويقدم مفهوم «الحوادث / Kontingenz» مثالا على ذلك، كونه من الأدلة العقلية الرئيسية في الإسلام على وجود الخالق، التي تسعى هذه الرسالة إلى ترسيخه بين عموم المسلمين، فيحيل على تأمل قول الفضالي: «.. مثاله: إذا قيل ما الدليل على وجوده تعالى؟ أن يقال هذه المخلوقات»³⁷.

«Z.B. jemand fragt: «welches ist der Beweis für die Existenz Gottes?» Antwort: «die Geschöpfe»³⁸.

وينبه على أن «الحوادث» من المفاهيم المؤسسة في الفكر الإسلامي³⁹. نخلص من هذه الشواهد إلى أن اختيار هورتن لرسالة السنوسي «أم البراهين»، وهي الأصل لرسالة الفضالي «كفاية العوام»؛ جاء نتيجة إدراكه لقيمتها في تشكيل الوعي الإسلامي، وليجعل منها وأشباهها القاعدة الأساس التي يجب البدء بها لفهم الثقافة الروحية للإسلام وعمامة المسلمين⁴⁰.

المبحث الثاني: التعريف بكتايبهما وطبيعة تناولهما لهذه الرسالة

المطلب الأول: م. فولف

عنون «فولف» كتيبه بـ: «El-Senusi's Begriffsentwicklung des Muhammedanischen Glaubensbekenntnisses, Arabisch und Deutsch, mit Anmerkungen».

ويمكن ترجمته على النحو التالي: «تطور مفهوم لفظ الشهادة المحمدية، لدى السنوسي».

36 - نفسه ص 55.

* النص الأصلي:

«Der abendländische Leser wird davon überrascht sein, dass die vorliegenden Katechismen für die bereitesten Kreise des Volks bestimmt sein wollen – für alle, die lesen und schreiben lernen. Wir sehen daran wie stark der hellenistische Einfluss noch heute ist»

37 - محمد الفضالي الأزهرى، كفاية العوام فيما يجب عليهم من علم الكلام، مع حاشية الباجوري، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م، اعتنى به أحمد فريد المزيدي، ص 34.

38 - Mohammedanische Glaubenslehre, s. 5.

39 - Mohammedanische Glaubenslehre, s. 54-55.

40 - Mohammedanische Glaubenslehre, s. 54.

يقع الكُتيب بمجموع الترجمة والتعليق، ونص رسالة «أم البراهين» الملحقه في آخره، في حوالي 50 صفحة من الحجم المتوسط؛ وذكر في آخره عنوان عربي هو: «الرسالة في معاني كلمتي الشهادة، لأبي عبد الله، يوسف السنوسي».⁴¹

يذكر فولف في مقدمته أنه استوحى هذا العنوان من محتوى رسالة «أم البراهين»، لأن كلا النسختين اللتين اعتمدهما، -وهما نسخة «بولاق» المطبوعة سنة 1250هـ/ 1834م، والتي قارنها بنسخة خطية توجد بالمكتبة الملكية بمدينة دريسدن- ليس فيها ذكر للعنوان؛ كما يذكر أيضا أنه وقف في «كشف الظنون»⁴² على كتاب منسوب للسنوسي، تحت عنوان: «أم البراهين»، وأنه يعتقد أنه هو هذا الكتاب، لأن له نفس المحتوى.⁴³

وكما تعذر على فولف التأكد من عنوان رسالة السنوسي، تعذر عليه أيضا التعريف بالسنوسي، وأين عاش، وسبب لقبه بـ«السنوسي»؛ وذلك لأن المصدر الذي أمكنه الاطلاع عليه في هذا الجانب، هو «كشف الظنون». يقول «فولف» في مقدمته: «مؤلف هذه الرسالة، هو: أبو عبد الله يوسف السنوسي؛ عاش في القرن التاسع للعهد المحمدي، القرن 15 للعهد المسيحي. أين؟ لا أستطيع ذكر ذلك، لأنه ليس لدينا أي أخبار عن ذلك».⁴⁴

اعتمد م. فولف في كُتيبه إضافة إلى «كشف الظنون» على مراجع أخرى، منها: «المواقف» للإيجي، من خلال عمل ت. سورنسن⁴⁵ / Th. Sörensen؛ وقد استعان به كثيرا في تعليقاته حول المسائل العقدية والكلامية. وكتاب «التعريفات» للجرجاني، إلخ.

41 - ذكر بهذا العنوان أيضا في بعض فهرس الخزانات الجامعية والملكية، انظر على سبيل المثال: Katalog der Kaiserlichen- Universität und Landesbibliothek in Strassburg, Arabischer Literatur. Strassburg Verlag von Karl J. Trübner. 1877. S. 77. Nr. 2996. 8.1.

42 - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة.

43 - M. Wolff, El-Senusi's Begriffsentwicklung. VI.

44 - M. Wolff, El-Senusi's Begriffsentwicklung. S. V-VI.

النص الأصلي:

« Der Verfasser dieser Abhandlung ist: Abu Abdellah Jusuf El-Senusi; er hat im 9ten Jahrhundert der muhammedanischen Ära (im 15ten der christl.) gelebt, doch wo? Kann ich nicht angeben, da uns darüber alle Nachrichten fehlen.»

45 - العنوان كاملا كما ذكره فولف في الهامش هو:

«Statio quinta et sexta et appendix libri Mevakif auctore 'Adhad-Ed-Din El-igi cum comentario Gorrganii. Ed. Th. Sörensen. Lipsiae, sumbtipus Engelmann. 1848.

كما نجد من مصادره أيضا كتاب «تاريخ مختصر الدول» لأبي الفرج، غريغوريوس، المعروف بابن العبري، تـ 1286م / 685هـ، وذلك من خلال إحالته على: بوكوك؛ (Edward Pocock 1604– 1691)⁴⁶.

كان بوكوك من أوائل الذين أسهموا في تعريف الأوروبيين بأبي الحسن الأشعري ومذهبه، وذلك من خلال نشره ترجمة لاتينية مع شروح لكتاب «تاريخ مختصر الدول» لابن العبري.⁴⁷ ومن خلاله يحيل أيضا على الشهرستاني.

يوازي م. فولف في هذا الكتيب بين التدقيق اللغوي ومحاولة شرح المضامين العقدية والكلامية الواردة في «أم الباهين».

فبالنسبة للتدقيق اللغوي، نجده يقف عند معاني الحروف والاشتقاقات، ويميز بين صيغ المبالغة، ويضبط الإعراب، ويشير إلى أنواع الجمل، ويحيل على شواهد من آيات القرآن، مستعينا في ذلك بتعليقات أستاذه «فلايشر» على تفسير البيضاوي. فعلى سبيل المثال يميز «من» البيانية عن غيرها، ويجعل لها مرادفا بالألمانية، هو «nämlich»⁴⁸. كما يميز بين «لا»، التي تفيد «النفي»، والتي بمعنى «لا غير»، ويستدل للمعنى الأخير بقوله تعالى: ﴿بَقَرَةٌ لَا تَلُولُ...﴾⁴⁹ حتى إنه يقف عند دلالة النفي في حرف «الباء» من «بصفة»⁵⁰ في قول السنوسي، وهو يسوق برهان قيامه تعالى بنفسه: «.. والصفة لا تتصف بصفات المعاني ولا المعنوية، ومولانا جل وعز يجب اتصافه بهما، فليس بصفة..»⁵¹، مستشهدا بالآية: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾⁵².

46 - وعنوان كتابه كما ذكره فولف هو: Specimen historia arab.

47 - تقول أندريا ترانتيني: «نشر مرة أولى بشكل مختارات في عام 1650م في أكسفورد، وفي عام 1672م نشر تاريخ أبي الفرج كاملا بالعربية واللاتينية، الذي شكل منذ ذلك الحين أول مصدر أو مرجع لمعرفة تاريخ العرب في أوروبا، في مؤلفات أبي الفرج يحكي أيضا عن الأشعري وعقيدته..» وتضيف أنه أيضا «أغنى كتاب (اللمع) بشروح مهمة يذكر فيها ويعطي معلومات عن أكثر من 120 مؤلفا عربيا..» انظر: مصادر معرفة أبي الحسن الأشعري في أوروبا حتى بداية القرن التاسع عشر، «بحث ضمن أعمال الملتقى العالمي الخامس، لرابطة خريجي الأزهر الشريف: الإمام أبو الحسن الأشعري، إمام أهل السنة، ج 1، ص». وقال أنطوني صالحاني اليسوعي في مقدمته لتحقيق كتاب (تاريخ مختصر الدول): «وقد طبع هذا التاريخ لأول مرة سنة 1663م في مدينة أكسفورد بالعربية واللاتينية، بمراجعة العلامة بوكوك. ثم ترجمه بور إلى الألمانية سنة 1783م».

48 - El-Senusi's .. ص 8، هامش.

49 - سورة البقرة، الآية 70.

50 - El-Senusi's .. ص 10، هامش.

51 - متن أم الباهين.

52 - البقرة 73، وقد تكررت هذه الآية في القرآن، أكثر من مرة.

ويقف مثلاً عند «ل» من «ليعلموا» في قول السنوسي، وهو يتحدث عن الرسل: «.. لأنهم عليهم الصلاة والسلام أرسلوا ليعلموا الخلق بأقوالهم ..»⁵³؛ مبيناً الفرق بين «لام الإرادة التي سماها: «Lam der Absicht»، و«لام الغاية» التي سماها: «Lam des Endzweckes»، و«لام العاقبة» التي سماها: «Lam des Erfolges»⁵⁴.

وبالنسبة للمصطلحات المنطقية والعقدية الواردة في أم البراهين، نجده أيضاً قد تعامل معها بنفس علمي جيد، حيث لا يكتفي بترجمة المتن فقط، وإنما يزيده شرحاً وتوضيحاً، متتبعا لكثير من المسائل الكلامية والمفاهيم العقدية؛ هذا مع ملاحظة أنه فاتته أحيانا بعض الدقة الضرورية في التعامل مع اللغة العقدية، التي درج عليها متأخرو الأشاعرة؛ فقد ترجم على سبيل المثال، قول السنوسي: «اعلم أن الحكم العقلي ينحصر في ثلاثة أقسام ..»، على النحو التالي: «Wisse, dass das Vernunfturteil⁵⁵ drei Klassen umfasst, ..»⁵⁶

فاستعمل فعل «umfassen»، الذي يعني: «احتوى» و«ضم»، ولا يفيد معنى الحصر، كما يقصده السنوسي في عبارته؛ وبالمقارنة مع م. هورتن، نجد هذا الأخير ترجم نفس العبارة بقوله:

«Das Verstandsurteil zerfällt restlos in drei Arten; ..»⁵⁷

فاستعمل الفعل «zerfallen»، الذي يعني: «تجزأ وانقسم»، مميزاً له بلفظة «restlos»، التي تعني هنا: «من غير زيادة»، ليفيد انحصار الحكم العقلي في ثلاثة أقسام فقط، كما تفيده عبارة السنوسي.

لكن مع ذلك وفق «فولف» إلى حد كبير في جل الكتاب، خاصة عندما يشفع الترجمة بمزيد من الشرح، الذي يزيد بياناً لمدلولات الألفاظ العقدية والشرعية.

ومن نماذج ترجمته للصفات:

«الوجود: «das Sein»، «القدم: «die uranfängliche Existenz»، «البقاء: «die ewige Dauer»، «مخالفته

للحوادث: «seine Unterschiedenheit von zeitlichen Dingen».

وترجم عبارة السنوسي: «.. وقيامه تعالى بنفسه، أي لا يفتقر إلى محل ولا مخصص»؛ على النحو التالي:

53 - متن أم البراهين.

54 - El-Senusi's ..., S. 20.

55 - كتبت في نص الكتاب: Vernunfturteil، والملاحظ أن كثيراً من الكلمات الألمانية لم تعد تكتب اليوم كما جاءت لدى فولف.

56 - El-Senusi's ... ص 1

57 - Muhammedanische Glaubenslehre, S. 45.

«Sein (des Erhabenen)⁵⁸ Bestehen durch sich selbst, d.h.⁵⁹ dass, er keines Dinges bedarf, an dem er in die *Erscheinung trete und keines Dinges, dass ihn specialisire».⁶⁰

وينبه هنا على أن مصطلحي «المحل والمخصص»، من المفاهيم المتأخرة في الكلام الإسلامي.

وترجم عبارته: «.. والوحدانية»، أي لا ثاني له في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله؛ هكذا:

weder in (أي لا ثاني له) d.h. dass er keinen Zweiten neben sich hat, (الوحدانية) Dann die Einzigkeit

. noch seine Handlungen,⁶¹ (ولا صفاته) noch seine Attribute, (سواء فيما يخص ذاته) Betreff seines Wesens,

(ولا أفعاله)

وترجم «صفات المعاني»: «Attribute der Idee»، «القدرة: die Macht»، «الإرادة: das Wollen»، «العلم:

das Wissen»، «الحياة: das Leben»، «السمع والبصر: das Hören und Sehen»، «الكلام: die Rede»، مترجما

ومعلقا في نفس الوقت على معانيها ومتعلقاتها.

وترجم الصفات المعنوية بـ: «ideelle Attribute»، وهي كونه قادرا: «er mächtig ist»، كونه مريدا:

«er wollend ist»، كونه عالما: «er wissend ist».⁶²

لا يكتفي فولف بترجمة المتن فقط، بل يتجاوزه إلى محاولة شرح المفاهيم الكلامية، فيقف عند معنى

«الدور: Kreisbewegung der Ursache» و«التسلسل: das Unendliche»، فيبين معنهما، مستعينا بتعريف

الجرجاني، مستعملا بعض مرادفاتهما في اللغة العبرية، ومشيراً إلى أنها مصطلحين فلسفيين.⁶³

كما يشير إلى تنوع آراء الفرق الكلامية في بعض المسائل، مثل الاختلاف بين المعتزلة والأشاعرة في

مسألة الصفات؛ مشيراً لمفهوم «علم الكلام» عند أهل السنة، مستعينا في ذلك بتعريف ابن خلدون له في

المقدمة؛ وكيف أن منهج الأشاعرة يعتمد «النقل: das Positive der Religionsschriften» أولاً، ثم «العقل:

die Vernunft».

58 - تفيد معنى: تعالى.

59 - يستعملان اختصاراً لـ: das heißt التي تفيد أداة التفسير: أي، أو يعني.

60 - El-Senusi's ..., S. 2.

* يكتب هذا في الألمانية الحديثة هكذا: spezialisieren

61 - El-Senusi's, S.2-3.

62 - أبقيت على تركيب الجملة كما جاءت في عبارة فولف، وإلا يمكن أن يتقدم الفعل ist، ليحتل الموقع الثاني في الجملة.

63 - نفسه، ص 8 وما بعدها.

وبنفس النهج يشرح بعضا من مسائل النبوات، كمسألة «عصمة الأنبياء»: ⁶⁴ «Sündlosigkeit der Propheten» ويفصح فولف عن بعض من يصفهم السنوسي بـ«الجهلة»، وهو يتحدث عن افتقار المخلوقات إلى الله: «.. وأما إن قدرته مؤثرا بقوة جعلها الله فيه، كما يزعمه كثير من الجهلة، فذلك محال أيضا ..»؛ ⁶⁵ من أنهم بعض الفلاسفة الذين يقولون بتأثير الأشياء بطبعها. ⁶⁶

وفي ذلك إشارة إلى أنه اطلع على بعض شروحات أم البراهين، أو على المسائل الخلافية بين الفلاسفة والمتكلمين، خاصة متأخري الأشاعرة منهم.

والخلاصة أن ترجمة فولف لأم البراهين وتعليقاته عليها جيدة إلى حد ما.

المطلب الثاني: م. هورتن.

عنون هورتن كتابه بـ:

«Muhammedanische Glaubenslehre: die Katechismen des Fudali und des Sanusi, übersetzt und erläutert von M. Horten».

ويعني: «العقيدة المحمدية، قواعد الفضالي والسنوسي العقدية، ترجمة وتعليق م. هورتن». وقد طبع أول الأمر في مدينة بون، سنة 1916، كما هو مثبت في الطبعة الأصلية. وقد ذكره بدوي تحت عنوان:

«Muhammedanische Glaubenslehre: Der Catechismus des Tudâti und des Sanusi...» ⁶⁷.

ويبدو أن في هذا العنوان خطأ أو تصحيفا: إذ نجد لفظة: «Tudâti» بدل «Fudali».

وصف «المحمدي» أو «المحمديون»، للدلالة على الإسلام والمسلمين، من الإطلاقات التي تم تجاوزها اليوم؛ وقد كان هانز كونغ / Hans Küng من أشهر الألمان المخضرمين، الذين دعوا إلى ضرورة تجاوزها، لأنها -حسبه- مزعجة للمسلمين، ثم إنها ترسخ نوعا من سوء الفهم لدى المسيحيين عن طبيعة الإسلام، حيث يربطون نشأته بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ولا يرونه امتدادا للرسالات السماوية السابقة، كما يرى الإسلام نفسه ذلك. ⁶⁸

يتكون هذا الكتيب من مقدمة و ترجمة وتعليق على رسالتين في العقيدة الأشعرية، ثم خاتمة تضمنت بعض الاستنتاجات.

64 - نفسه، ص 13-14.

65 - من متن «أم البراهين»، الذي ألحقه فولف بكتابه.

66 - El-Senusi's., S.18.

67 - موسوعة المستشرقين، ط. دار العلم للملايين، بيروت ط. 3، ص 619.

68 - Hans Küng, Der Islam: Geschichte, Gegenwart, Zukunft, S. 58.

أولى الرسالتين هي: «كفاية العوام فيما يجب عليهم من علم الكلام»؛ للإمام محمد الفضالي المتوفى عام 1821⁶⁹. وقد ذكرها هورتن بنفس العنوان، وعرف بها وبالفضالي تعريفا مقتضبا، حاول من خلاله لفت الانتباه إلى أهميتها وقيمتها، كونها من مقررات التدريس بـ«الأزهر». ومن دلائل قيمتها عنده، أن وضع لها الإمام الباجوري، تـ 1277هـ / 1860م، حاشية⁷⁰ سماها: «تحقيق المقام على كفاية العوام في علم الكلام»؛ وهي المرجع الأساس لهورتن في هذا الكتاب.

وثاني الرسالتين هي «أم البراهين» للسنوسي، وذكرها باسم: «عقائد السنوسي»؛ وقد ترجمها وألحقها بالكتاب، باعتبارها الأصل الذي بنى عليه الفضالي عقيدته: «كفاية العوام»، التي جعلها بمثابة جواب مفصل لأحد السائلين؛ حيث قال (أي الفضالي): «قد سألتني بعض الإخوان أن أولف رسالة في التوحيد، فأجبتة إلى ذلك، ناحيا نحو العلامة الشيخ السنوسي في تقرير البراهين، غير أنني أتيت بالدليل بجانب المدلول، وزدته توضيحا، لعلمي بقصور هذا الطالب».⁷¹

وبخلاف م. فولف، لم يجد ماكس هورتن صعوبة في التعرف على السنوسي ورسالته «أم البراهين»، أو السنوسية كما اكتفى بتسميتها.

أفاد هورتن -كما صرح بذلك-⁷² من عمل م. فولف وتعليقات الباجوري كثيرا، إلا أن ترجمته اختلفت في كثير من تعابيرها عن ترجمة فولف.

سعى هورتن فيما يبدو إلى أن يكون أبلغ من «فولف» في تقريب «أم البراهين» من القارئ الألماني، فاستعمل في مرات عديدة أكثر من مرادف لبيان المفاهيم العقدية، خاصة الصفات، فترجم مثلا صفة «البقاء» بـ ewige Dauer، كما فعل فولف، إلا أنه أضاف لفظة أخرى لها نفس الدلالة تقريبا لمزيد من التوضيح، وهي: «Unvergänglichkeit».

وعبر عن صفات المعاني بـ «Eigenschaften der Inhärenzien»، فترجم القدرة: Allmacht، والإرادة freie Willen، على هذا النحو؛ وترجم المعنوية بـ die inhärenzartige، وهي كونه قادرا، Allmächtigsein، كونه مريدا، Freiwillendsein، كونه عالما Allwissendsein، على هذا النحو، بخلاف التركيب الذي استعمله فولف، كما سبقت الإشارة.

69 - ذكر صاحب «الأعلام» أن وفاته كانت سنة 1821، وذكر له رضا كحالة تاريخين، 1820م و1821م، انظر الأعلام للزركلي، ط، دار العلم للملايين 2002، ج 6 ص 155، «الفضالي»، ومعجم المؤلفين، نشر دار التراث العربي، باب الميم، «محمد الفضالي».

70 - Muhammedanische Glaubenslehre, s. 4.

71 - مقدمة كتاب: «كفاية العوام فيما يجب عليهم من علم الكلام»، مطبوع مع حاشية الباجوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 2007، تح. أحمد فريد المزيدي، ص 21.

72 - Muhammedanische Glaubenslehre, S.53.

كما استعان بمفردات غير تلك التي استعملها فولف، إلا أنه اضطر مع ذلك لإشفاها بشيء من التوضيح، يضعه دائما بين قوسين؛ وذلك نظرا للحمولة المركزة لهذه الصفات في العقيدة الإسلامية؛ مثل صفة «مخالفته للحوادث»، حيث إنها تتركب من مفهومين عميقين تمثلهما لفظتي: «المخالفة» و «الحادث». فترجمها على النحو التالي:

«Diversität (totale, generische Verschiedenheit) von den zeitlichen (geschöpflich-vergänglichen) Dingen».⁷³

فنى هنا، كيف أنه اجتهد في أن يعبر عن الدقة المتضمنة في هذه الصفة «المخالفة للحوادث» فجاء بلفظ Diversität، لكن بما أنه لا يفيد المخالفة التامة من جميع الوجوه، أشفعه بالجملة التي وضعها بين قوسين، (totale, generische Verschiedenheit)، ليفيد منتهى المخالفة، وينفي توهم المماثلة في بعض الجوانب؛ وترجم «الحوادث» بـ zeitlichen Dingen، وتعني «الأشياء الوقتية»؛ لكن بما أنها بهذه الترجمة لن تفي بدلالة مفهوم «الحادث» كما تقرر في العقيدة الإسلامية، جاء بوصفين إضافيين وضعهما بين قوسين، هما: (geschöpflich-vergänglichen)، ويعنيان: الـ «مخلوقات» و الـ «الفانية».

وترجم قول السنوسي: «ومما يستحيل في حقه تعالى عشرون صفة ..»، هكذا:

«Die Bestimmungen, die Gott nicht zukommen können (für ihn Unmöglichkeiten bedeuten), sind zwanzig, ...».⁷⁴

نرى هنا أيضا، أنه وضع جملة بين قوسين، هي: «تعني بالنسبة له مستحيلات»؛ وذلك ليربط ذهن القارئ بالتقسيم العقلي لما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقه تعالى، وليساعده بذلك على فهم هذه الرسالة.

كما اجتهد هورتن في إيجاد تعابير ومفردات ألمانية للمصطلحات والمفاهيم العقدية، مثل:

(حدوث العالم: Das zeitliche Entstandensein der Welt)، (العدم: Nichtsein)، (المحدث: Hervorbringer)، (العوارض: Akzidenzien)، (الذوات: körperlichen Substanzen)، (التحيز/ الجرمية: Räumlichkeit des Körpers)، (الدليل العقلي: Verstandsbeweis)، .. إلخ.

ولأن هورتن كان حريصا - كما سبقت الإشارة - على الكشف عن أثر فلاسفة الإغريق في كلام السنوسي، سواء في توظيف مقولاتهم أم في الرد عليها، كان يشير لذلك أثناء الترجمة؛ كما فعل عند قول السنوسي في سياق حديثه عما يستحيل في حقه تعالى، وأنه لا يجوز أن يحدث شيء في العالم دون إرادة الله: «.. أو بالتعليل أو

73 - Muhammedanische Glaubenslehre, S. 46.

74 - Muhammedanische Glaubenslehre, S. 46.

بالطبع»؛ وضع هورتن بين قوسين الجملة التالية: «Solches lehrten die griechischen Philosophen»، أي: «مثل ذا، علم الفلاسفة الإغريق». وقال عند قول السنوسي وهو يتحدث عن دليل الافتقار الذي يؤخذ منه حدوث العالم بما فيه: «.. هذا إن قدرت أن شيئا من الكائنات يؤثر بطبعه»؛ «Leugnung des griechischen Begriffes»⁷⁵، أي «رفض لمفهوم «فيزيس» الإغريقي». هذا المفهوم «Physis» الذي ينتهي إلى التأثير بالطبع.

الخاتمة

على الرغم من أننا لا ندري المسار الذي سلكته رسالة «أم البراهين» تحديدا، حتى استقرت بين يدي هذين المستشرقين الألمانين، وأمكنهما التعرف عليها وترجمتها وتقريبها من القارئ الأوروبي، إلا أن ذلك يمثل برهانا واضحا على أن شهرة «أم البراهين» وكثرة تداولها بين العلماء وطلبة العلم الشرعي، كانت عوامل رئيسية مكنتها من تجاوز رقعة الغرب الإسلامي لتنتقل إلى أوروبا، في ظرف وجيز نسبيا في هذا السياق، بين وفاة أبي عبد الله السنوسي سنة 1490م، وترجمتها من قبل م. فولف سنة 1848م.

لقد كشف لنا تعاظم كل من م. فولف وم. هورتن مع هذه الرسالة - وإن بشكل متفاوت -، أنه لم يكن عملا اعتباطيا من غير إدراك لقيمتها، وإنما كان بناء على إدراكهما للأهمية والتأثير الكبيرين اللذين نالتهما هذه الرسالة، سواء من حيث تشكيلها للوعي العقدي للمسلمين، أم من حيث أهميتها كمادة للبحث والدراسة لدى المستشرقين الألمان، والأوروبيين بشكل عام؛ ولذلك عبر كل منهما في مقدمته عن الحاجة إلى ترجمة هذه الرسالة، وتمكين الدارسين الألمان من التعرف على محتواها.

كما قدّما (فولف، وهورتن) لنا من خلال ترجمتهما وتعليقاتهما على هذه الرسالة، شاهدا قويا على مدى تطور الاستشراق الألماني في هذه الفترة، - أي القرن التاسع عشر ومطلع العشرين - أيضا في تناوله لعلم الكلام الإسلامي بشكل عام، وللمذهب الأشعري على نحو خاص؛ وفي هذا السياق، فإن عملهما هذا، وخاصة م. فولف، قد عرّفنا بخريطة المصادر الأشعرية التي كانت منتشرة لديهم في هذه الفترة، كما مكّنا أيضا - وخاصة فولف - من تتبع بعض الروافد التي من خلالها تعرف المستشرقون الألمان وعموم الأوروبيين على أبي الحسن الأشعري ومذهبه؛ فقد أحال م. فولف على سبيل المثال وفي أكثر من مرة، على كتاب مختصر تاريخ الدول لغريغوريوس، الذي كان قد نشره بوكوك؛ وكان هذا الكتاب من المصادر الأولى التي قدمت معلومات عن أبي الحسن الأشعري للأوروبيين؛ وبإحالة فولف عليه، نتأكد أنه قد ظل إلى هذه الفترة من المصادر الرئيسية في التعرف على المذهب الأشعري.

وقد أمكننا أن نلاحظ في عملهما كذلك اهتمامهما بطريقة متأخري الأشاعرة، حيث امتزج علم الكلام بالمنطق، وصارت المقدمات المنطقية والبراهين العقلية وسيلة أساسية في إثبات وجود الله تعالى.

لائحة المراجع العربية والأجنبية

العربية

- 1 - الباجوري، إبراهيم، حاشية الباجوري، المسماة: تحقيق المقام على كفاية العوام في علم الكلام، للشيخ العلامة، محمد الفضالي الأزهري، ت 1236هـ، نشر دار الكتب العلمية، ط. 1، 2007، اعتنى به أحمد فريد المزيدي.
- 2 - البختي، جمال علال، عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية، دراسة لجانب من الفكر الكلامي بالمغرب من خلال البرهانية وشروحها، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط. الأولى، 1426هـ / 2005م.
- 3 - بدوي عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت ط. 3.
- 4 - بطار، عبد القادر، «دلالة ست وستين عقيدة في التراث العقدي الأشعري المغربي»، بحث ضمن أعمال ندوة: الفكر الأشعري بالمغرب، خلال مرحلتي التأسيس والترسيم، المؤثرات المشرقية، والخصوصيات المحلية، تنسيق جمال علال البختي، إصدار الرابطة المحمدية للعلماء، ط. الأولى، 1438هـ / 2017م.
- 5 - بطار، عبد القادر، محاضرات في المذهب الأشعري، منشورات دار الأمان الرباط، الطبعة الثانية 1440هـ / 2019م.
- 6 - حجي محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات دار المغرب، للتأليف والترجمة والنشر، 1396هـ / 1976م.
- 7 - احنانة يوسف، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1438هـ / 2017م.
- 8 - الزركلي خير الدين، الأعلام، نشر دار العلم للملايين، ط. 5، 2002م.
- 9 - زهري خالد، من علم الكلام إلى فقه الكلام، مقارنة لإبراز معالم التجديد الكلامي عند فقهاء وصوفية المغرب، دار الضياء للنشر والتوزيع، الكويت، 1438هـ - 2017م.
- 10 - زهري خالد، منزلة صغرى السنوسي عند المغاربة، ص 1-13 بحث منشور (ب د ف) على الشبكة العنكبوتية.

- 11 - سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربية والمعرية، نشر المكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، بدون تاريخ.
- 12 - السنوسي، أبو عبد الله محمد بن يوسف، أم البراهين، ويليها: شرح أم البراهين، لأبي عبد الله الملاي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 2، 2009م، تح. د. خالد زهري.
- 13 - السيد رضوان، المستشرقون الألمان، النشوء والتأثير والمصائر، دار المدار الإسلامي، ط. 2، 2016م.
- 14 - سيزكين فؤاد، تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربية محمود فهمي حجازي، راجعه د. عرفة مصطفى، ود. سعيد عبد الرحيم، أشرف على طباعته ونشره إدارة الثقافة والنشر بالجامعة، 1411هـ، 1991م.
- 15 - الشفشاوني، محمد ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، ط. 2. مصورة بالأوفست، الرباط، 1397هـ / 1977م، تح. محمد حجي.
- 16 - ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس الملطي، ت 685هـ، تاريخ مختصر الدول، نشر دار الشروق، بيروت، ط. 3. 1992م. تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي.
- 17 - العقيقي نجيب، المستشرقون، نشر دار المعارف بمصر، 1964م.
- 18 - الفاسي، عبد الحفيظ بن محمد الطاهر، معجم الشيوخ، المسمى رياض الجنة، أو المدهش المطرب، نشر دار الكتب العلمية، ط. 1، 2003، صححه وخرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي.
- 19 - فنديك إدوارد، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، ط. الهلال، مصر، سنة 1896م.
- 20 - كحالة، عمر بن رضى الدمشقي، معجم المؤلفين، نشر مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
- 21 - لويس غرديه و ج. فنواقي، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ترجمة صبحي الصالح، وفريد جبر، دار العلم للملايين، بيروت.
- 21 - المنجد صلاح الدين، المستشرقون الألمان، تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، دراسات جمعها وشارك فيها صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، ط. 1، 1978م.

المراجع الأجنبية، باللغة الألمانية

- 1 - Annemarie Schimmel, Mystische Dimensionen des Islam. Insel Verlag, 1995.
- 2 - Brockelmann, Carl, Geschichte der arabischen Literatur, zweite Ausgabe mit Berichtigungen, Leipzig, C. F. Amelangs Verlag, 1909.

- 3 - Johann Fück, die arabischen Studien in Europa bis in den Anfang des 20. Jahrhunderts.
- 4 - Hans Küng, Der Islam: Geschichte, Gegenwart, Zukunft, Piper Verlag GmbH, München 2004.
- 5 - Horten Max, Muhammedanische Glaubenslehre: die Katechismen des Fudali und des Sanusi, übersetzt und erläutert von M. Horten. A. Marcus und E. Weber's Verlag, Bonn 1916.
- 6 - Horten Max, «Sanusi und Griechische Philosophie», Der Islam, Band 6, Heft 2, Seiten 178–188, ISSN (Online) 1613-0928, ISSN (Print) 0021-1818, DOI: <https://doi.org/10.1515/islam.1915.6.2.178>.
- 7 - Rudi Paret, Arabistik und Islamkunde an deutschen Universitäten, deutsche Orientalisten seit Theodor Nöldeke, Steiner Verlag, Wiesbaden, 1966.
- 8 - Katalog der kaiserlichen Universität- und Landesbibliothek in Strassburg, arabischer Literatur, Strassburg, Verlag von Karl J. Trübner, 1877.
- 9 - Bausteine eine jüdischen Geschichte der Universität Leipzig, Stephan Wenderhorst (Hg), Leipziger Beiträge zur jüdischen Geschichte und Kultur, Band IV 2006.
- 10 - Ludmila Hanisch, die Nachfolger der Exegeten Deutschsprachigen Erforschung des Vorderen Orients in der ersten Hälfte des 20. Jahrhundert, Harrassowitz Verlag 2003.
- 11 - Dr. M. Wolff, El-Senusi's Begriffsentwicklung des Muhammedanischen Glaubensbekenntnisses, Arabisch und Deutsch, mit Anmerkungen.
- 12 - Dr. M. Wolff, Mohammedanische Eschatologie
- 13 - Tilman, Geschichte der islamischen Theologie, von Mohammed bis zur Gegenwart, München 1994.

مراجع باللغة الإنجليزية

- 14 - H. A. R. Gibb & J. H. Kramers, Shorter Encyclopaedia of Islam, Leiden, E. j. Brill 1974.

صفحات الإنترنت:

- <https://www.deutsche-biographie.de/sfz86089.html#adbcontent>
<https://deacademic.com/dic.nsf/dewiki/1104307>
https://www.deutsche-biographie.de/sfz071_00390_1.html
http://www.eslam.de/begriffe/a/aa/abu_abdullah_sanussi.htm
<http://www.steinheim-institut.de/wiki/index.php/RabbinerHandbuch:1:Namenliste#W>
<http://www.jewishencyclopedia.com/articles/14991-wolff-maurice>
<https://www.jewishvirtuallibrary.org/gteborg>



صَوْتُ الْإِيمَانِ

ذ. محمد البلغمي

شاعر من فاس

ارْبَدَّتْ الْأَيَّامُ فِي عَيْنِي وَحَاقَ بِي الْكَدَرُ!
وَالدَّمَعُ مِنْ فَرْطِ الْأَسَى شَقَّ الْمَحَاجِرَ وَانْهَمَرَ
مَالِي .. وَنَابَ الدَّهْرُ يَنْهَشُنِي، وَتَسَحَّقُنِي الْغَيْرُ؟
وَيَعُجُّ قَلْبِي بِالْخُطُوبِ ب، كَأَنِّي دُونَ الْبَشَرِ

فِي السَّبَسَبِ الْمَجْهُولِ أَمْضِي تَائِهًا بَيْنَ الْفِكَرِ!
وَحَدِي .. وَأَعْوَامِي تَمُرُّ بِلاَ ربيعٍ أَوْ مَطَرٍ
أَظْلُ أَسْبَحُ فِي الْعَذَا ب.. وَلَا مُجِيرَ مِنَ الْخَطَرِ؟
وَتَضِيعُ أَمَالِي نَثَا رَأْ كَالْهَبَاءِ الْمُنْدَثَرِ؟

وَيَكَادُ يُدْرِكُنِي الْقُنُوطُ طُ فَأَنْشِي .. بَعْدَ السَّفَرِ:
مُتَسَائِلًا فِي حَسْرَةٍ هَلْ مِنْ عَزَاءٍ أَوْ وَزَرٍ؟
فِيهِزْنِي صَوْتُ مِنَ الْأَعْمَا ق يَصُدِّحُ كَالْوَتَرِ
وَتُضِيءُ نَفْسِي شُعْلَةً أَنْقَى مِنَ الْفَجْرِ الْأَغْرَ

هِيَ نُورٌ إِيْمَانِي الْكَبِيرُ بِخَالِقِ الْكَوْنِ الْأَبْرُ
بَسَنَاهُ يَغْمُرُ مُقْلَتِي وَيُزِيلُ عَنْ قَلْبِي الضَّجْرُ
فَأَرَى الْحَيَاةَ جَمِيلَةً تَخْتَالُ فِي أَحْلَى الصُّوْرِ
رَغَمَ الضَّبَابِ فَخَلَفَهَا تَفْتَرُّ أَمَالُ أُخْرُ

يَا قَلْبُ لَا تَقْنَطْ إِذَا مَا اللَّيْلُ خَيَّمٌ وَانْتَشَرُ!
وَالْجَاءُ لِرَبِّكَ إِنَّهُ نَعَمَ الْمُجِيرُ لِمَنْ صَبَرُ
وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنِ الْوَرَى وَلَهُ الْجَمِيعُ قَدْ افْتَقَرُ
فَاصْبِرْ.. وَإِنْ طَالَ السُّرَى فَعَدَا سَيَبَسُّ الْقَمَرُ!

ما أكرمك يا خالقي !

• ذ. محمد بن محمد الحجوي

شاعر من سلا

بهاء قد تجلى في الوجود

هو الأنوار — من رب ودود

فضائل قد علت في كل ركن

هي الأنعام من بار رشيد

لك الحمد الجزيل أيا مجيبا

لداع من قريب أو بعيد

وهذي الأرض يا ربي جنان

هي البرهان للعاصي الجحود

أرى التسبيح يا ربي بحمد

دليل وفاء عبد بالعهود

وأسأل عنك نجما في سماء

يمجد باريء الكون الوحيد

فيخبر أنك الله،قدير

معين مرشد لرضى سديد

وأتلو محكم الآيات فجرا

تكون الذخر لي يوم الشهود

ومن إشراق صبح مزهر، من

ثنايا ذلك الفجر الجديد

أرى أنوار باريء لطيف

بديع الصنع في هذا الوجود

وفي سري وإعلاني أنادي:

أيا ذا الجود والحكم الرشيد

دعوتك في الخطوب ، فأنت برُّ

وعون في الكروب وفي القيود

عبدتك في صلاتي خاشعا زا

هدا ، أرجو الرضا يوم الخلود

أيا ربي مددت يدي ، فأنت الر

جاء لكل عبد في السجود

فيا من يرتجى في كل ضيق

رجونا رحمة يوم الحشود



افتتاحية

5

ملف العدد

عناية القاضي أبي بكر بن العربي بالتراث العقدي الأشعري

9

هـ. ذ. عبد القادر بطار (أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة).

الدّرس العقدي الأشعري بالمغرب: المعالم والخصائص

27

هـ. ذ. رشيد عمّور (أستاذ التعليم العالي بالرشيدية).

وسائل المعرفة ومقصد تحصين العقيدة الإسلامية عند أشاعرة المغرب

39

هـ. ذ. خالد زهري (أستاذ التعليم العالي بكلية أصول الدين بتطوان).

التكامل والانسجام بين العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي

53

هـ. ذ. عبد الرحيم الأمين (أستاذ التعليم العالي بكلية الحقوق، أكادال، بالرباط).

شيخ الجماعة محمد المكي البطاوري (1274 - 1355هـ) وجهوده في خدمة العقيدة الأشعرية

65

هـ. ذ. عدنان زُهار (أستاذ باحث بالجديدة).

التأويل عند الأشاعرة وتحصين العقيدة الإسلامية

77

هـ. ذ. أحمد شاوف (أستاذ باحث بمكناس).

نماذج من المتون العقدية الأشعرية المعتمدة بالغرب الإسلامي، إحكام في المضمون وتحقيق للمأمول

89

هـ. ذ. عبد العلي بلامين (أستاذ التعليم العالي بجامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء).

المذهبية الأشعرية وتحصين العقيدة الإسلامية

97

هـ. ذ. عبد الصمد بوذياب (أستاذ باحث بوزان).

صلة العقيدة الأشعرية بما كان عليه السلف

105

ذ. محمد أرازو (أستاذ باحث بتطوان).

«أم البراهين» في الدراسات الألمانية، عرض لترجمتي: «فولف» و «هورتن»

117

ذ. سعيد المبطي (أستاذ باحث بألمانيا).

ديوان العدد

صَوْتُ الْإِيمَانِ

139

ذ. محمد البلغمي (فاس)

ما أكرمك يا خالقي ! / شعر

143

ذ. محمد بن محمد الحجوي (سلا)

شروط النشر بالمجلة

تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

- ✓ أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- ✓ أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- ✓ التقيد التام بكتابة الآيات القرآنية وفق المصحف المحمدي.
- ✓ الاعتناء التام بعلامات الترقيم، والالتزام بالقواعد المتعارف عليها في تحرير البحوث والمقالات.
- ✓ ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم A4.
- ✓ في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- ✓ في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- ✓ تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ✓ ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وصفته وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- ✓ البريد الإلكتروني هو: alamihamid49@gmail.com
- ✓ ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- ✓ الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ✓ ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ✓ تصنيف البحث أو المقال وتنسيقه تنسيقاً جيداً.
- ✓ هوامش التوثيق والإحالات والمصادر والمراجع تدرج في أسفل الصفحات وليس في آخر البحث أو المقال.
- ✓ يكتب البحث أو المقال بخط Simplified Arabic مع التقيد بالمقاسات الآتية: 14 في النص، و10 في الهامش، و01 ما بين السطور.

ملف العدد المقبل

تدعو إدارة مجلة **دعوة الحق** السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاورين الآتين:

1 - ذكرى عيد العرش المجيد.

2 - ذكرى ثورة الملك والشعب.

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالكراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية